حكاياتنا

منى أحمد

دار ليلى
كيان كورب

حكاياتنا

د. منى أحمد

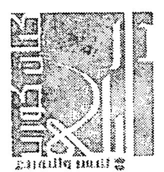
الكتاب:
حكاياتنا
المؤلف:
د. منى أحمد
رقم الإيداع:
9896/2013
الترقيم الدولي:
978-977-5238-74-0
★★★
الغلاف:
محمد محمود
المدير الفني:
حسام سليمان
التدقيق اللغوي:
محمد عبد الغفار
★★★
التوزيع:
عبد الله شلبي
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع
دار ليلى

د. منى أحمد

حكاياتنا





السماء من ثقب إبرة

لأننا كنا نسكن تحت الأرض، فقد كنا نرى السماء دائما من ثقب إبرة، وكنا نتنفس من ثقب إبرة، وحتى حين كنا نضحك، كنا نضحك من ثقب إبرة.

ولأن حلم عمري كله كان يتلخص في أن أسكن فوق الأرض، وأن أمتلك بيتا مرتفعا يطل على السماء من جميع منافذه، لهذا كان يجب عليَّ أن أحارب حتى أصل لحلمي الذي كنت أراه أيضا من ثقب إبرة.

وكأي حرب في التاريخ، كانت هناك أسلحة ومعارك.. وكانت هناك أيضا جراح، وغالبا ما كانت جراحاتي وحدي.

كان أول سلاح عرفته هو أن أستغل جهل الآخرين بحقيقة أني أحيا تحت الأرض.. لهذا كان سلاحي الأول هو مظهري.

كنت أنا وأختي الصغرى وحيدتين لأم تعمل لفترات طويلة وأب غير متعلم، ومنذ نعومة أظافرنا تعلمنا أن مظهرنا هو أهم شيء في حياتنا، كنا نمضي أياما كثيرة بغير طعام يُذكر حتى نوفر القليل من المال

الذي ننفقه كله بعد ذلك على مظهرنا..

وهكذا نجح سلاحي الأول.. ونجحت جولتي الأولى.

رأيت الناس لا يعرفون سوى ما يرونه أمامهم، وقد تعمدت أن يراني أي إنسان أفضل منه.

كنت أتعمد التكبر في كل شيء، وأتعمد الاستخفاف بأي شخص، وكان هذا يعطي مظهري بريقه الخاص.

ولكي يكتمل هذا المظهر كان لا بد من أسلوب خاص للحديث، ولأن مظهري قد أتاح لي التعرف على أرقى طلبة الجامعة، فقد تعلمت كيف أتحدث مثلهم، وكيف أجعلهم يرون حديثي هو الحكمة المطلقة في كل شيء.

لهذا كان لساني دوما طوع أمري..

وكان يتخذ ألوانا كثيرة حيثما كنت.. في بيتنا كان لا بد أن أستخدم مصطلحاتهم وألفاظهم التي أحتقرها والتي أعرف أنني جزء منها أو هي جزء مني..

أما فوق الأرض فقد كنت فتاة أخرى بوجه آخر ولغة أخرى.

* * *

والآن أحدثكم عن أمي..

كانت أمي كل ما كرهته فيما تحت الأرض، وكانت تمثل لي كل ما هو حقير في هذا العالم..

كانت امرأة بلا أخلاق وبلا كرامة..

لم أرَها يوما تعلمنا مبدأ أو فكرة إلا بالطبع مبادئها الخاصة.

كانت تعلمنا أن الرجال – كل الرجال – يضعفون أمام الجنس، لكنهم فقط يختلفون في أن بعضهم يفضل الأمر معلنا وبعضهم يؤثر الحفاظ على مظهره المحترم..

وعلينا نحن النساء أن نميز جيدا وأن نستغل هذه الحقيقة إلى أقصى الحدود..

وكانت هي قدوتنا في ذلك؛ فالرجل الذي تراه يميل للاحترام كانت تحادثه في براءة ودلال عن أسرتها الرائعة وبنتيها الجامعيتين..

أما الرجل الذي ترى فيه لمحة من الليونة، فقد كانت لا تخرج من عنده إلا وقد صارا صديقين جدا.. وقد علمته كلمات كان ليحيا عمره كله ولن يسمعها من امرأة..

وقد أطلقت يديها في كل جسده بمداعبات وقحة.. وعليه هو أن

يحدد بعد ذلك حجم العلاقة التي يبغيها.

كانت أمي تعلمنا أن هذه الصداقات هي التي تجعلها تحتفظ بعملها، وهي التي تجعلنا نأكل ونلبس مع أب لا يستطيع أن يقوم بنصف متطلبات حياتنا وحده.

وهكذا علمتنا أمي الكثير..

كيف نكذب ونختلق قصة بلا أول ولا آخر بدقة متناهية وثبات كامل وفي لحظة واحدة..

كيف نأكل أموال الناس ولا نبالي..

كيف نستغل كل ما تصل إليه أيدينا وبكل الطرق.

علمتنا أمي أن الكرامة قيد غبي ليس هناك ما يبرره، فأبي كان على علاقة بصديقة أمي.. وبغيرها، وكانت أمي تعلم بذلك..

لكن الغريب أنها لم تكن تبدي أي استياء..

فما دام كل الرجال كذلك، وما دامت الكرامة وهما، وما دام مظهرنا لم يُمس، وأنه يعود إليها في النهاية، فهي لا ترى إذًا أي ضرر من تلك العلاقات..

بل على العكس، فقد كانت تشعر بقوتها كلما عاد إليها بعد

إحدى المغامرات؛ لأن هذا هو بيته الوحيد، ولأنها هي دون غيرها زوجته الوحيدة!!

وهكذا لم تبال أمي كم يعرف من نساء، ولم تبال كذلك بمعاملة أبي لها المفعمة بكل احتقار وبإهاناته التي لم يفكر يوما أن يخفيها عنا، فقد كان أسهل ما عليه أن يهينها أمامنا، وربما يصفعها أو يضربها ضربا مبرحا..

فكل ذلك لا يهم ما دام الناس لا يعرفون.

ولم تتذمر أمي من علاقة أبي بصديقتها إلا حين بدأت تلك المرأة تستغل أبي ماديا..

عندها رأيت لأمي كرامة وحقوقا.. وأشياء أخرى كنا نسمعها للمرة الأولى..

كنا نعرف يقينا أنها قد ثارت من أجل نقود أبي القليلة، لكننا لم نكن على يقين بفهم أبي لهذه الحقيقة الواضحة كالشمس..

لكني على الرغم من كل ذلك - وصدقوا أو لا تصدقوا - قد أحببت أمي كثيرا، فهي على كل حال لم تكن تفعل إلا ما تحسبه خيرا لنا..

وكانت تحبنا من كل قلبها حتى مع أننا كنا نهينها أسوةً بأبي،

لكنها لم تكن ترى عيبا في ذلك أيضا.

ولأننا كنا تلميذتين نجيبتين، فقد تفوقنا على أستاذتنا..

وبدلا من أن كانت تصادق الرجال الذين يشاركونها العمل، صرت أنا وأختي نأتي بالرجال حتى بيتنا..

وبالطبع كانت أمي أول من بارك هذا الأمر وقد سعدت به كثيرا، أما أبي فلم يرفض أي شيء، فهو لم يكن يرى خطأ في ذلك..

فقد كان هؤلاء الرجال يريحونه من بعض متطلباتنا، وكان هو يثق في أننا لن ندع الأمور تخرج عن السيطرة..

فقد كان يعرف أين تقع حدود تلك الصداقات..

نعم.. كانت هذه الحدود تقع أبعد كثيرا مما يظن..

لكننا في النهاية لم نصل إلى آخر القاع، وكنا دائما نحرص على أن نحتفظ بمظهرنا الفاضل أمام أبي.

ولأن أبي لم يكن متعلما.. ولأنني وأختي كنا ندرس بالجامعة.. فقد كان يعتبر منطقنا دوما هو الصواب وما نقوله هو الحق الذي لا يقبل أي نقاش..

حتى لو جاءه أحد جيراننا أو معارفنا ليحذره مما نفعل، فقد كان

لا يصدِق سوانا، ولا يسير إلا على الطريق الذي نرسمه.

* * *

وهكذا صادقنا صاحب السيارة لتصير سيارته دائما في خدمتنا، وليتمنى هو اللحظة التي يكون فيها سائقا لنا،

وصادقنا رجل الطبقة الراقية لننتمي إليها، وصادقنا من يستطيع أن يعطينا مالا ومن يستطيع أن يعطينا عملا، حتى المشاعر.. كنا نتخير من نصادقهم لأجلها.

ولأن بيتنا تحت الأرض، فلم يكن يدخله منهم إلا من نتأكد أنه لن يبالي أين نسكن.

وكان جزء كبير من مهارتنا كذلك يكمن في تغطية كل هذا..

كيف نجعل أخطاءنا حسنات.. كيف نقلب الحق باطلا والباطل حقا..

كيف أخرج مع رجل لما بعد منتصف الليل، ثم أعود بملابس فاضحة لأتكلم عن الفضيلة والآداب، وأقنع الجميع أن هذه السهرة كانت عملا خيريا، وأن تلك الملابس كانت محتشمة جدا بالنسبة لما رأيته هناك!!

كانت الفكرة كلها هي كيف تعطي الناس أنصاف الحقائق،

وتسمح لهم بمعرفة ما تريدهم فقط أن يعرفوه.

لهذا فعندما كنا نجلس بأي مكان ليأخذنا الحديث عن أي امرأة مطلقة أو رجل له علاقات متعددة أو أحدهم الذي تصرف بشكل مشين، كنا نحن أول من ينتصر للفضيلة وأول من يتحدث عن تقاليدنا الشرقية العريقة..

وكنا نتشدق بحياتنا الأسرية المستقرة، حتى لو كنا نعرف أن أبي في هذه اللحظة بالذات يجالس صديقة أمي.

ليس المهم أين الحقيقة.. المهم أن تجعل الناس يصدقون الحقيقة التي تعطيها لهم.

لكن للأسف، فعلى الرغم من كل طموحي وكل محاولاتي للصعود، فإنني قد تزوجت من رجل أقل كثيرا مما تمنيت.. رجل هو في الحقيقة أدنى مَن عرفت..

لكنني أتمسك بآراء أمي في هذا الشأن؛ فربما يمتنع عن الإنفاق عليَّ، وربما يخونني أو يهجرني أو حتى يقتلني..

فكل هذه الأشياء تحدث..

لكنني أرى انفصالي عنه أسوأ من كل هذا؛ لأن الناس حينها

سيعرفون..

ثم إنني أستطيع أن أستمر بحياتي كما أردتها على كل حال..

والآن – وحتى هذه اللحظة – فإنني أحافظ على مظهري الرائـع، وقد صار لي عمل مرموق، والأهم من كل ذلك أنه قد صار لي بيت واسع..

بيت فوق الأرض..

وصار لي كذلك طفلة جميلة..

وُلدت في ظروف أفضل، لتحظى بأم ستعلمها الكثير!!

* * *



العروس المسحورة

رأيته ذات يوم..

ومنذ اللحظة الأولى أدركت أني قد جننت..

منذ اللحظة الأولى عشقته..

وعشقت كل صغيرة فيه.. وكل لمحة منه..

انعقاد حاجبيه.. إيماءات رأسه.. إشارات يديه..

ونظرته، وابتسامته، ودهشته، ونومه، ويقظته، وضحكته، وثورته، ووو...

وأظل حزينة حتى أراه..

وأظل كئيبة وخائفة ومرهقة..

مرتبكة كمن فقد شيئا..

حائرة كحرف لم يجد كلمته بعد..

حتى أراه قادما من بعيد..

فأرى إشراقة شمس.. وبريقا خاطفا..

ونسيما.. وعطرا.. وأمواجا..

وفصولا تتتابع..

وأزهارا تتفتح..

وطيورا تتراقص في كل مكان..

لست أدري من أين تأتي ولا إلى أين تريد! !

وتظل عيناي تلاحقانه..

وأظل أدور حوله..

أحاول أن أنظر لسحره من جميع الزوايا، لعلي أجد الثقب الذي يفيض منه كل ذلك السحر ليحوله إلى شيء غير البشر، ليأخذني معه إلى ذلك المكان الذي لست أفهم متى وُجد! !

كنت كلما أراه أشعر أني سحاب بعيد، وقصيدة شعر، وفجر جديد، وثوب حريري، وطفل نائم، وخيال حالم، ورمال ناعمة، وأفكار طليقة، وتنهيدة طويلة، ووعي مفقود، وغابات تحلق بالسماء.. ووووو...

كنت أراه في كل العالم، بل أرى العالم كله مرسوما بملامحه..

إن أغلق عينيه قتلني..

وإن فتحهما مزقني..

إن تحدث أراه خارجا من كتب الحكايات، وأقسم إنني أرى الأزهار تتساقط من فمه كما الأساطير..

وأرى كلماته دررا.. وياقوتا.. وماسا..

وأقسم إنني أرى القيثارات خلفه وأسمعها تعزف أفضل ما سمع العالم..

فإذا تحدث تمنيت ألا يصمت أبدا حتى أنعم بحديثه..

وإذا صمت أتمنى لو يظل صامتا حتى أتأمله..

وحين يغضب أتمنى ألا يهدأ حتى أنعم بغضبه..

وحين يهدأ أتمنى ألا يغضب حتى أحيا هدوءه..

فهو في كل حالاته جمال بلا شوائب..

جمال صافٍ كنهر من نور خالص..

وبحثت بكتب الشعر ولم أجده..

وبحثت بكتب العشق.. وكتب الجن.. وكتب السحر..

ولم أجده..

لأنه كان شيئا ليس يوجد.. أسطورة لم يحكها أحد من قبل..

ثم تخيلوا هذا الأسطورة..

يعشقني!!

وتخيلوه يرجوني أشاطره عمره وحياته!!

فإذا كنت عشقته مرة، فقد عشقت حبه ألف مرة!!

* * *

العهد الصامت

كانت «مها» صغيرة جدا حين رأته لأول مرة..

إنها حتى لا تذكر متى كان ذلك..

لقد كبرت في رعايته..

قريب بعيد لأمها هو، وقد كانت تدعو كل أقارب أمها (أخوالها)..

وهكذا اعتادت أن تدعوه (خالها)، واعتادت أن تراه، وأن يلاعبها ويضحكها، ويشتري لها الحلوى، ويأخذها في نزهاته الطويلة وأسفاره..

وكان «خالها» متزوجا، ابنته تصغرها بعامين فقط، وقد كانت صديقتها المقربة..

تربيا معا كأختين، وحين بلغت «مها» الخامسة عشرة توفيت أم صديقتها الغالية.. توفيت زوجته..

واضطرت «مها» إلى الذهاب إلى بيتهم كثيرا بعد الوفاة، فقد كان عليها أن تكون بجوار صديقتها الصغيرة، وكانت تعتبر نفسها بمثابة الأخت الكبرى التي يجب أن تكون أكثر عقلا وقوة ومسئولية..

والحق أنها كانت تضع هذه المسئولية دائما نصب عينيها، وقد حاولت أن تؤدي واجبها على الوجه الأكمل..

وكان هذا كله حين لاحظت هذه الشعيرات البيضاء التي بدأت تظهر برأس خالها.. كانت كتاج يضيء فوق جبهته العريضة فيزيده جمالا..

ثلاثون عاما كانت تفصل بينهما، لكن هذه الأعوام الطويلة لم تزده في عينيها إلا جلالا وعظمة.. فقد كان رجلا بكل معنى الكلمة.. رجلا كهذا الفارس الأسطوري الذي تتمناه كل النساء..

وكانت تعلم أنه مهما كانت مشاعرها تجاهه من الخطأ أو الصواب، فإن الحقائق الأولى ستبقى هي الحقائق الوحيدة؛ هو سيبقى خالها الذي رباها.. تعرف هذه الحقيقة بقدر ما تكرهها..

وتعرف أنها يجب ألا تقابل ذلك بغير العرفان والوفاء..

وساندته في محنته بعد وفاة زوجته كما ساندت ابنته..

وفي النهاية فهي لم تكن تنسى زوجته نفسها – رحمها الله – لقد بكتها من أعماق قلبها..

فقد كانت إنسانة شديدة الحنان واللطف، ولم تجد منها يوما غير

الكلمة الطيبة والمشاعر الرقيقة..

فكانت تشعر أنها كذلك قد فقدت صديقة وأما..

لقد أحبت هذه الأسرة بجميع من فيها..

وحاولت أن تبذل أقصى جهدها لمساعدتهم..

هذا كله كان يدور بخلدها وهي بعدُ في الخامسة عشرة..

تذكر جيدا أنها لم تكن أبدا هذه المراهقة الصغيرة، لكنها وجدت نفسها تقع في حبه حتى النخاع..

وتذكر كيف كان الناس يعاملون «حبيبها» وكأنه أبوها..

وكيف كانت هذه المعاملة تجرحها وتبكيها..

لكنها قررت أن تحافظ على هذه الصورة البشعة إذا كانت هي السبيل الوحيد الذي سيُبقي على علاقتها به وبصديقتها وعلى وجودها بالقرب منهما..

وارتضت أن تحتفظ بحبيبها سرا.. تخبئه داخلها ولا تبوح به لأحد أبدا..

كانت هذه الخيوط من العقل هي الحبل الوحيد الذي يشدها حتى لا تنتهي إلى الجنون..

فقد كانت تدرك صعوبة موقفها؛ فهذا ببساطة هو حب حياتها الحقيقي..

تعرف أنها لن تنساه أبدا، وأنها قد لا تستطيع أن تحب سواه طوال حياتها، فأي رجل سيقارَن به سيخسر بالتأكيد..

كان هذا أشبه بلعنة ما.. لعنة أصابتها وهي تحاول أن تنجو بأقل الخسائر..

فكّرت أنها لو صارحته أو اتخذت أي خطوة ما فستكون الخاسرة بالتأكيد، ليس مقدرا لهذا الحب أن ينجو، وليس في مقدرتها أن تكون أكثر شجاعة في هذه المعركة الخاسرة..

كيف يمكن لأهلها أن يوافقوا على زواجها بمن يرونه «خالها»؟!

كيف يمكن لصديقة عمرها أن تتقبل مثل هذا الأمر وأن تسامحها؟!

والأهم من هذا وذاك – لو أنها ارتضت هذا الجنون وتحدت العالم – فهل يمكن أن يُكتب لزواجهما النجاح مع هذا الفارق العمري؟!

ماذا لو أصابته الغيرة من أحد زملائها الشباب؟!

هل سيكون الأمر مجرد غيرة من رجل آخر، أم سيكون غيرة من

رجل أصغر سنا؟!

فهل يأتي اليوم الذي تراه فيه وقد فقد ثقته بنفسه وفقد كبرياءه وشموخه؟!

هل يأتي اليوم الذي تراه فيه عجوزا؟!

إنها لا تحتمل أن يأتي مثل هذا اليوم..

لا تحتمل أن تراه ينحني يوما ولو من أجلها..

وهكذا ما إن تمر فكرة الزواج برأسها حتى ترى أمامها شبحا يخنقها ويخنق حبها العزيز..

هذا الحب الذي فضلت أن يحيا بداخلها عابثا بحياتها كيفما شاء، فاعلا بقلبها ما يريد..

أحيانا تشعر به طفلا يلعب فيملأ قلبها فرحا، وأحيانا كان يكسر هذا القلب ويحيله فُتاتا..

كانت أحيانا تشعر بلحظات النشوة التي تمتلك فيها العالم ويتوقف عندها الزمن، وأحيانا أخرى كانت تتمنى الموت ليخلصها من هذا العذاب..

لكنها كانت تقول لنفسها إنه من الطبيعي أن يحدث كل هذا، من

الطبيعي أن تقع في غرامه..

أي «أخرى» مكانها كانت لتفعل الشيء نفسه..

فهو رجل ليس ككل الرجال..

لكنها مع ذلك يجب أن تحول هذا الحب إلى شيء أعمق..

يجب أن تحول هذه النيران التي تأكلها إلى ماء عذب تشرب منه فترتوي حبا وسعادة..

هناك من يعيشون ويموتون دون أن يعرفوا لحظة من الساعات الطويلة التي قضتها إلى جواره تشعر بهذا «الاكتفاء»..

إنه هذا الاكتفاء العظيم الذي يهديه الحب فتشعر أن كل شيء في أتم حالاته، لا شيء ينقص، ولا شيء يزيد..

كانت تكون نفسها فقط حين تكون معه..

وكان هذا الشعور بالأمان والدفء والحماية والراحة الذي كان يملؤها وهي إلى جواره يجعل منه أباها وصاحبها ومعلمها وحبيبها ورفيق دربها..

إن هذه الأوقات الجميلة كانت هي حياتها الحقيقية.. كل حياتها..

وهكذا اتخذت قرارها.. ونفذته..

ولمدة خمسة عشر عاما ظلت تنفذه..

وظلت على هذا العهد الصامت الذي أبرمته بمفردها..

وظلت عليه على الرغم من أنها كانت تشعر بالجنون، كانت تعتريها «أزمات» عنيفة تجعلها لا تغادر غرفتها لأيام تقضيها في ذهول..

دوامات ودوامات من الأفكار كانت تقتلها..

تشعر أحيانا أن هذا كله غير موجود، وأن هذا ليس حبا من الأساس..

لو كان حبا لما تركها تقتله بهذا الشكل، إن هذه الحياة التي أرادت أن تمنحه إياها ما هي إلا موته..

لو كان حبا بالفعل لصرخ وثار.. لأعلن عن نفسه.. لقتلها قبل أن تقتله..

وأحيانا أخرى كان هذا السؤال الذي يذرع غرفتها طوال الليل ذهابا وإيابا، لا يكف عن الحركة ولا يهدأ أبدا..

ماذا عنه؟!.

كانت قد قضت بجواره حياتها كلها تقريبا..

وكانت هذه العِشرة الطويلة تعطيها ثقة خفية بأنها أكثر من يفهمه..

هي أكثر من يشعر به، وأقرب إليه من ذاته..

وكان قلبها يؤمن بأنه يكنُّ لها المشاعر ذاتها، وأنه يبادلها العشق والعذاب..

وكان داخل هذا الإطار الجامد الذي فرضه المجتمع تقع هذه اللحظات النادرة..

هذه اللحظات التي تلتقي عيناها عينيه وسط الزحام، فتطول الثواني دهرا ويصبح الوقت معدوما..

تنفتح عيناه أحيانا كنافذة بحرية تكشف روحه بكاملها وتخبرها في فصاحة بسره..

هذه اللحظات التي تجعل منها بطلة كل حكايات الحب..

وتجعل حبهما هو عين الحب الذي تاه الناس في حدائقه الظليلة منذ آلاف السنين، ونظموا فيه القصائد وكتبوا القصص، وما استطاعوا أن يصفوه..

وكانت هذه اللحظات تكفيها...

ولكن...

فبعد كل هذه السنوات الطويلة، وبعد كل هذا الحب الكبير، رأته منذ أيام وهو يتزوج..

وكانت هذه أكبر صدمة لم تكن تتصور يوما أن تواجهها..

وكادت الصدمة هذه المرة تقتلها فعلا..

كان هذا حين زارهم في بيتها، وسمعت أمها تقول له:

حادثها أرجوك.. فأنا لست أدري ماذا ألمَّ بها.. وأنت الوحيد الذي تستمع إليه وتثق به.

رأته يفتح الباب ويدخل إلى غرفتها..

نظرت إليه بعينين أجهدهما السهر والبكاء..

نظرت إليه معاتبة وثائرة وملتاعة..

وكان حزنها هذه المرة أكبر من أن تحتمله، فحنت رأسها وأرخت جفنيها..

لم يكن لديها ما تقول..

جلس إلى جوارها ووضع هاتفه المحمول ومفاتيحه فوق الكومود..

صمت قليلا ثم بدأ الحديث بصوته الهادئ الآسر العميق:

ألم أسألك يوما عن الزواج بفارق سني كبير فأجبتِ بأنه زواج فاشل؟!

ألم أسألك لماذا لا تتزوجين فأجبتِ بأن قلبك ليس بين يديك؟!

أيتها الصموت القاسية.. أعرف أن ما بيننا لا يحتاج إلى كلمات.. لكن عقلك هذا قاتلك وقاتلي معك..

إنني لا أستطيع أن أراكِ تدمرين نفسك أكثر من ذلك..

لا أحتمل أن أراكِ هكذا..

أعرف أنك قد اتخذت قرارا صحيحا.. لهذا لم أناقشك فيه، وتماديت معك في هذا العذاب..

لكنك الآن يجب أن تعيشي حياة حقيقية.. وعليَّ أن أساعدك لتحصلي على هذه الحياة التي تستحقينها..

فلأجل سنوات عمرك الوردية وشبابك الغض، ولأجل ما وهبتني ووهبتِ ابنتي من حب وسعادة، دعيني أساعدك لكي نستطيع معا أن نحتمل قسوة الحياة..

ولكي تظلي دوما كما عهدتك يا جميلتي القوية.

* * *

وهنا رن هاتفه فانتفضت.. وصمت..

يا إلهي.. إنها المرة الأولى التي يعترف فيها بحبه..

وتردد هذا الاعتراف في كل كيانها بقوة، وكأن الكلمات تحمل صدى في كل خلية منها فتزلزلها..

شعرت بقلبها يكاد يتوقف وقد أذهلتها المفاجأة وأربكها اجتياح كلماته التي وصلت إلى قلب الحقيقة دون مقدمات وكأنها انتقام من كل سنوات الصمت..

ألا تنبت لحظات السعادة إلا وسط كل هذه الدموع؟!

كانت كلماته وكأنها تعيد إليها الحياة من جديد.. وكأنها اليد التي امتدت لغريق.. فأنقذتها من يأسها وجنونها..

لقد تزوَّج إذًا من أجلها.. ومن أجلها وحدها..

وحين رن هاتفه التقطه في سرعة، كانت عروسه التي تمضي أيام شهر العسل الأولى بمفردها الآن..

وحين التقط الهاتف نسيت كل شيء وتساءلت: لماذا سارع إليه على هذا النحو؟

هل خشي من زوجته لأنه معها، أم خاف عليها إذا هي رأت

اسمها على هاتفه أن يؤذيها؟

ولم يطل تساؤلها فقد أجابتها حركة يده سريعا، لقد أمسك بالهاتف وقلبه بين يديه حتى لا ترى اسم المتصل، ثم رفض المكالمة..

هل هناك من هو أكثر حنانا في هذا العالم؟!

وهل للحنان اسم آخر سواه؟!

لقد كانت يده التي قلبت الهاتف وكأنها تحتضنها وتمسح دموعها وتعطيها القوة لكي تتنفس من جديد..

كان وكأنه يخبرها بأنها ستظل دائما الأهم في حياته..

وكان كل هذا مثل هدية الميلاد..

وكأنه هدية اعتذار عن كل السنين التي عاشتها بين الشك واليقين..

وعن كل الذكريات التي سمّتها وهما..

لم تكن هذه المجنونة التي ظنتها في نفسها..

لقد كان عهدها حقيقة..

وكان حبها حقيقة..

لكنه فقط كان حبا مختلفا.. كان حبا يحمي ويبني.. حبا وسعهما.. ووسع أحبابهما.. فوسع العالم معهما..

* * *

اختلاف زاوية الرؤية

«اليوم يختلف.. بالتأكيد هو كذلك؛ لأنني اليوم سأراها، واليوم سأحادثها، واليوم سنتنزه معا.. إذًا فسأولد اليوم بشكل ما».

هكذا كان الدكتور «هشام» يفكر وهو يرتدي ملابسه في ذلك الصباح، لقد ظل عمره كله يبحث، وحين وجد الفتاة التي شعر معها أن أحلامه كانت أقل كثيرا من الواقع، وجد تلك الفتاة تبادله المشاعر، وكان هذا أفضل من أن يكون واقعا.

أخذ يفعل كل شيء في سرعة كعادته؛ لأنه كان يعرف أنه بعد عشر دقائق لن يستطيع السير بشوارع المدينة المزدحمة.

وصل المستشفى الذي يعمل نائبا به.. إنها المرة الأولى التي يلاحظ فيها وجود هذه الزهور والنباتات داخل المستشفى، عشرة أعوام يغدو ويروح ولم يلحظ ذلك!!

«ذلك بالتأكيد لأن اليوم يختلف».. هكذا أخذ يفكر.

ولج إلى عيادته الصباحية وهمّ أن يبدأ عمله حين وجد أحد الطلبة يهرول إليه ليستشيره في إحدى الحالات، ذهب معه وحادث المريضة

قليلا ثم حقنها بالدواء الذي كان الطالب يحمله.

في ظروف أخرى كان سيفعل ذلك في صمت، لكنه شعر أنه بالفعل يحاول أن ينشر جوا من المرح حوله.. أخذ يتبادل الحوار مع الجميع، ثم قال للمريضة:

«لا تخافي، فلن تشعري بأي ألم، إن حالتك بسيطة للغاية»..

ثم ابتسم وتركهم..

إنه يتحرق شوقا كي ينتهي هذا اليوم.. فمتى ينتهي؟!

* * *

«تبقَّى يومان وتبدأ الاختبارات»..

ظلت هذه العبارة تتردد داخل رأس «أحمد» بلا توقف..

كان يشعر بالكثير من التوتر؛ فهذا عامه الأخير بكلية الطب، ولقد أراد أن يعكف على الاستذكار، لكنه كان يجب أن ينتهي من الحالات العملية أولا، وقد أجَّل موعد تلك المريضة مرتين ولا يستطيع تأجيله أكثر من ذلك.

كئيبا استيقظ.. وكئيبا ذهب..

لكنه ما إن خطا داخل العيادة حتى نسي كل شيء عن الكآبة..

وعن الاختبارات.. بل وعن الحياة..

شعور غريب ذلك الذي يعتريه في كل مرة يدخل فيها إليها..

يشعر أن العالم بأسره قد تلخص في الحالة التي أمامه، فينسى نفسه وينسى العالم وينسى المريض.. ولا يرى إلا ذلك المرض..

كان يعتبر كل حالة جديدة معركة جديدة..

وكان يعشق القتال.

ذهب للطبيب النائب كي يستشيره بشأن المريضة، اندهش حين وجده يبتسم؛ ذلك لأن الابتسام لم يكن ببساطة من عادات هذا النائب..

رافقه النائب إلى حيث المريضة وقام بحقنها بنفسه، وراقبه «أحمد» جيدا وهو يحدث نفسه قائلا: «يا له من ماهر!!»..

لم يكن النائب كبير السن، لكن «أحمد» شعر أن بينهما ألف عام..

فهل يستطيع أن يصير بمثل براعته يوما؟!

وإن استطاع، فمتى يأتي ذلك اليوم؟!

* * *

«أي طبيب هذا الذي يحدد موعدا بالثامنة صباحا؟!».

قالت «علا» هذه الكلمات لأمها في ضجر وهي ترتدي ملابسها في

الصباح، وكانت مجرد بداية لقصيدة طويلة في الذم والتأفف..

كانت «علا» تكره الأطباء بشدة؛ فقد كانت ترى المرض يتمثل مرتديا هذا البالطو الأبيض الكريه..

وجود الطبيب في أي مكان يعني وجود المرض، وبالنسبة لها كان الأطباء والمرض الشيء ذاته..

ولولا الألم الذي كان يعتريها بشدة لما ذهبت أبدا..

وأخيرا غادرت المنزل، ووصلت المستشفى متأخرة ومتوترة كعادتها.. وبعد أن دخلت العيادة وجدت طبيبها يذهب ليستدعي طبيبا آخر، مما زاد من توترها..

«ألا يعرف ذلك الأبله كيف يعمل وحده؟ أو ربما تكون حالتي سيئة بشدة؟».

جاء الطبيب الآخر وحادثها قائلا إن حالتها بسيطة وإنها لن تشعر بأي ألم..

«إذًا لماذا أشعر بكل هذا الألم؟

ولماذا يبتسم الطبيب وهو يحقنني بالدواء؟

ألا يشعر هذا الرجل كم يؤلمني المحقن؟

ألا يكفيني أوجاع المرض فتكون أوجاع العلاج؟».

كانت الأفكار تتدافع في رأس «علا» وكأنها تدفعها للجنون..

أرادت أن تصرخ بكل قوتها:

«أريد أن أعود إلى البيت الآن.. وفورا».

* * *



حين نكون معًا

عادت من العمل منهكة، وحين دخلت إلى المنزل ارتمت على أقرب مقعد في تهالك.. كان حقا يوما شاقا..

حدثت ألف مشكلة في عملها اليوم؛ ذلك لأن المصائب بالطبع لا تأتي فرادى، كالأسماك التي لا تستطيع أن تسكن المحيط الواسع إلا في جماعات كبيرة، وإلا ماتت من فورها..

شعرت أنها تغرق في هذا المحيط، وتواجه كل هذه الأسماك.. لكنها تنبهت على صوت زوجها يدخل من الباب، وكأنه انتشلها من الغرق..

كان زواجا تقليديا الذي جمعها وزوجها..

رجل مناسب، على خلق، مركزه مقبول..

تماما كما تقرأ إعلان زواج بالصحف، لكنها قبلته على كل حال..

ثم فهمت أن الصحف لا يمكن أن تصف كم وجدت هذا الرجل حنونا وكريما.. بالطبع لا يمكن أن تكتب الصحف: «تزوجي هذا الرجل لأنه يملك قلبا ذهبيا»!!

لكنها وجدت زوجها بالفعل يمتلك قلبا ذهبيا..

وأدركت معه أن التفاهم والمودة والسكينة والرحمة كلها معانٍ أعمق من الحب؛ لأن هذه الأشياء لا تأتي من النظرة الأولى، لكنها تضرب لنفسها جذورا قوية مع الأيام إذا منحناها الفرصة والرعاية..

لهذا كانت تحمد الله تعالى كل يوم على هذه الشمس التي بعثها لتملأ حياتها دفئا وحرارة..

وحين دخل زوجها عرفت أنه واجه اليوم مشاكل من نوع ما..

أيشاركها في هذا أيضا؟! إنها تراها تتقافز من وجنتيه..

ألقى عليها السلام، فردت مبتسمة في إعياء وقالت:

– نحتاج جزيرة مهجورة كي نتخلص من كل ذلك.

سألها في إشفاق:

– أنت أيضا واجهتك متاعب اليوم، أليس كذلك؟

أومأت أن بلى..

وضع ما كان بيده، ثم جلس، ثم أخذ يتحدث..

ولمدة ساعة كاملة كان يتكلم، وكأنه كان يفرغ كل شحنات غضبه في كلماته المتلاحقة، وكانت نبرات صوته تعلو وتنخفض تبعا للحدث.

كان ما حدث له اليوم يوشك أن يؤدي إلى فصله لولا رحمة الله التي جعلت مديره يتغيب في هذا اليوم بالذات، ومرت الأمور على خير.

وكانـت هـي تـصغي إليـه باهتمـام.. تنـدهش أحيانـا، وتـضحك أحيانا، وتعلق أحيانا..

وكان هذا يزيد نبراته تأثرا.

حتى انتهى من سرد ما حدث، ومن سرد رأيه في كل ما حدث.

ابتسمت وقالت:

- وأنا التي كنت أحسب أن ما وقع لي شيء كثير!!

- وما الذي وقع لك؟!

وبدأت تحكي وهو يستمع..

وبنفس أسلوب سرده سردت.. وبـنفس أسـلوب إصـغائها أصـغى، حتى انتهت وساد الصمت قليلا..

قطعت الصمت قائلة:

- أتعرف أني قرأت يوما أن الحب هو أن تهرب مع شخص واحـد من غباء الآخرين؟!

أظن أننا نستمد حبنا فعلا من غباء الآخرين.

– بل نستمده من أننا نجلس متجاورين؛ فالحب ليس اثنين ينظر كل منهما بعيني الآخر، لكنه اثنان متجاوران ينظران باتجاه واحد.

– أتمنى لو أعرف من أين لك بتلك الكلمات؟!

– هي قناعاتي على الرغم من أنها ليست كلماتي على كل حال..

ما رأيك بأن تقبلي دعوتي للغداء؟ نحتاج لأن نذهب لمكان ينسينا كل ما حدث اليوم..

تذكرت أنهما لم يأكلا شيئا منذ أفطرا معا، لهذا قبلت دعوته بأسرع مما عرضها.

وحين ذهبت معه كانت تحمد الله على هذا الزوج الرائع، وكان هو يحمد الله على زوجته الجميلة.

* * *

الجسر المكسور

ليلة طويلة مرت بها البارحة..

لم تكن تدري أن الليالي يمكن أن تصير بهذا الطول، ولم تكن تتخيل أنها هي بالذات يمكن أن تمر بهذه الظروف.

كان كل شيء بحياتها يسير كما خططت له تماما؛ دقيقا.. منتظما.. رائعا.

كان كل شيء كذلك حتى اقتحم ذلك الرجل حياتها.

لقد كان «أحمد» زميلها في العمل، لكنها منذ عرفته قد قلب حياتها رأسا على عقب..

لقد غيَّر كل شيء عرفته في نفسها..

صارت ترى الحياة من زاوية أخرى، وبين عشية وضحاها فوجئت بعقارب الساعات لا تدور إلا حوله، ووجدت نفسها لا تنتظر الصباح إلا لأنها ستراه.. كانت تعرف أن الزمن يتوقف عند عينيه، وكانت تسمع صوته كلما تحدث الآخرون، وترى حركاته الصغيرة كونا ونجوما وأجراما تسير.

كان هناك دوما ذلك المجهر الذي يضاعف كل شيء يتعلق به ألف مرة..

وكانت تعرف أنها في ظروف أخرى ما كانت لتنتظر، كانت ستذهب إليه على الفور لتخبره بكل شيء، وربما طلبت يده للزواج أيضا..

لكنها مع هذا الشخص بالذات لم تستطع أن تفعل ذلك؛ فقد كان دائما يضع ذلك الجدار بينهما..

ربما لو أنه فقط عاملها بقليل من اللطف، ربما لو لم يكن بتلك الخشونة، ربما حينها كان الأمر سيختلف.

لم تكن تحلم بالكثير.. فقط تمنت أن يعاملها كالأخريات.

لم تكن تدري لماذا يتجاهلها، لماذا يشعرها أنها غير موجودة أصلا.. وأنها مجرد لا شيء!!

حتى صارت هي كذلك شديدة الحساسية لكل ما يصدر عنه؛ كان إذا ذهب ولم يلق سلاما، تشعر بالباب إذ يغلق صفعة على وجهها..

وإذا كان يضحك ثم يصمت لرؤيتها، تشعر أنها عارية وكأن كل من حولها يعرف أنها تحب هذا الرجل وأنه يتجاهلها..

كانت قبل أن تعرفه تسير ثابتة الخطى، بطريق ترى فيه حتى النهاية، ومنذ عرفته صارت تلك الخطوات متعثرة.. متشابكة، ولم تعد تدري نهاية الطريق، بل لم تعد ترى ما تحت قدميها..

تعترف أن طريقها لم يكن جميلا جدا، ولا جذابا جدا، نعم كان يخلو من عينيه.. ومن ارتعاشاتها جواره، من لهفة لم تعرفها إلا إليه..

لكنه مع ذلك كان طريقها الذي اعتادته..

ومنذ عرفت هذا الرجل ضاع الطريق، ولم يبقَ إلا تساؤلات لا تنتهي.. وحيرة لا تنتهي.. وخوف لا ينتهي.

وكما عشقته بشدة، فقد جرحت كذلك بشدة..

وهكذا ففي خلال فترة قصيرة فكرت وقررت ونفذت، فإما أن هذا الرجل يحبها جدا وإما أنه يكرهها جدا..

وكان عليها أن تجد الإجابة..

كانت تحادث إحدى صديقاتها حين دخل، شعرت بأوصالها ترتجف، لكنها كانت لا تملك إلا أن تمضي فيما اعتزمت.

ضحكت متسائلة في لا مبالاة.. حاولت أن تخفي بها توترها:

«ألم تلحظ بي شيئا مختلفا اليوم يا أحمد؟».

أومأ في هدوء يقتلها أن نعم، سألته مشيرة بإصبعها التي كانت تزينها دبلة الخطبة:

«ألم تلحظ هذه؟».

ترقبت رد فعله بكل ذرة فيها، كانت لتدفع عمرها كله وتعرف فيم يفكر بهذه اللحظة..

لكنها شعرت أن بينهما ألف حاجز، وأنها لم تعد تفهم شيئا.

بدت سعادته طبيعية جدا وهو يهنئها، ربما لو كانت سعادة مبالغة لأوهمت نفسها أنه يفتعلها، لو أنه لم يبتسم بكل هذه الثقة..

لو أنه صمت قليلا قبل أن يلفظ كلمات التهنئة..

ربما استطاعت حينها أن تتوهم أنه مصدوم.

ولكن حيث كان هذا رد فعله فإنها بالتأكيد لن تندم بعدها على شيء..

شعرت بأنها تختنق، وأن كل هذا العالم قد ضاق فلم يعد يسع نفسا واحدا لتأخذه..

اعتذرت وذهبت مسرعة، لم تكن تعرف أين تذهب، لكنها كانت تعرف أنها تبكي بعرض الطريق..

* * *

كان «أحمد» عائدا من عمله حين لاحظ وجود أكوام القمامة، لم يكن قد لاحظ من قبل وجود كل هذه القمامة أمام بيته، كما لم يلحظ من قبل هؤلاء الذين عاش بينهم طوال سنوات حياته.

لم يلحظ من قبل هؤلاء الأطفال بوجوههم التي فقدت كل معالم البراءة..

يسيرون بالطرقات، ويجلسون بالطرقات، وينامون بالطرقات، لكن بالطبع تلك لم تكن أي طرقات.. لقد كانت طرقات الحي الذي يقطن به، أي أنه – شاء أم أبى – كان جزءا من كل هذا.

لم يرَ من قبل مسكنه بهذه البشاعة، الصبغات الرديئة بشعر فتيات دون العاشرة ليظهرن أكبر سنا، البيوت المتهالكة.. الطعام الرديء.. الأصوات المرتفعة.. الكلمات البذيئة..

تلك كانت أشياء اعتادها، حتى إنه لم يفكر أنها قد لا تكون موجودة..

لكن مشكلته كانت في أن الشقوق التي كانت تغطي حوائطهم صارت كذلك تغطي نفوسهم وتغطي كل شيء فيهم..

المشكلة أنه أدرك أن الفقر كان أعمق من أن يراه؛ لقد غيَّر شيئا في

نفوس هؤلاء الناس، وغيّر شيئا في عقولهم..

كانوا دُمى تتحرك بلا هدف.. بلا شيء.

إنها حقا المرة الأولى التي يرى فيها الأشياء بهذا الشكل..

كان كمن عاد من ماض سحيق.. ليرى العالم بأسره ليس كما تعود أن يراه..

لقد بدأ كل هذا العذاب منذ عرفها..

منذ عرفها صار يرى كل شيء في حياته أفظع.. ويرى فقره أوضح..

وبدأ ألمه الذي لا ينتهي..

كانت «مريم» زميلته بالعمل، لكنها في الواقع لم تكن في حاجة لهذه الوظيفة ولا إلى أي وظيفة أخرى..

كل فرد بالإدارة كان يعلم ذلك..

ملبسها، سيارتها الأنيقة، أسلوب حديثها، كل شيء فيها كان ينطق بالثراء..

ولقد أحبها منذ رآها لأول مرة، وكان ذلك الحب يزداد في كل يوم يعرفها فيه أكثر..

كانت شديدة الرقة على الرغم ممًا تتميز به من قوة، وكانت شديدة البساطة على الرغم ممًا تتمتع به من ثراء..

كان يراها شيئا من السماء، شيئا أفضل من أن يسكن ذلك العالم القبيح..

وكلما فكر بها تغنى:

لو ملكت الدنى سماء وأرضا * * * لوضعت الأكوان بين يديك

ولقلدت جيدك الشمس والبدر * * * وصغت النجوم في قرطيك

وجعلت السلام فرشا وثيرا * * * ورميت الهنا دثارا عليك

ولألقيت ما ملكت، وزندي * * * وفؤادي، والروح في راحتيك*

هكذا كان يتخيلها.. ولهذا لم يفكر أبدا أنه يمكن أن يقضي عليها بأن يفكر مجرد تفكير في ارتباطهما.. إنها بالتأكيد تستحق من هو أفضل..

كان حالهما أشبه بفيلم «أنا لا أكذب ولكني أتجمل» ولكن مع الفارق أنه كان لا يستطيع التجمل..

إن مساحيق العالم لا يمكنها أن تزيل كل هذا القبح عن وجه

---

* الكلمات للشاعر «مسعود سماحة» من قصيدة «لو ملكت الدنى»

حياته البائسة..

لا يستطيع أن يكون بهذه الأنانية..

إنه يهيم بها حبا، ولا يرضى لها أن ترتبط به على الرغم من المشاعر التي كان يتخيل أحيانا أنها تبادله إياها..

وقرر أن يبتعد، وأن يتجاهلها..

وبقدر ما كان يشعر بالضعف كلما مر جوارها، كان يتجاهلها ويتفادى مجرد النظر إليها..

حتى جاء اليوم الذي كان يتوقعه، وينتظره كما ينتظر المرء حكما بالإعدام..

جاءته ضاحكة تريه دبلة خطبتها، كان يعرف ذلك..

إن امرأة مثلها لا يمكن أن تفكر بشخص مثله..

بالتأكيد قد اختارته زوجا ثريا..

وعلى الرغم من أنه تخيل ذلك الموقف مرارا، فإن هذا لم يمنعه من الشعور بكل ذلك الحزن الذي اجتاح نفسه وجعل سيطرته عليها شديدة الصعوبة..

كانت خيالاته ككوابيس تتجمع في بطء لتصير حقيقة..

لكنه في النهاية استطاع أن يهنئها قبل أن تخرج من المكتب مسرعة، وخرج هو بعدها يسير بالطرقات مرددا لنفسه:

أحس فيك يا مدينتي المحيرة بأنني..

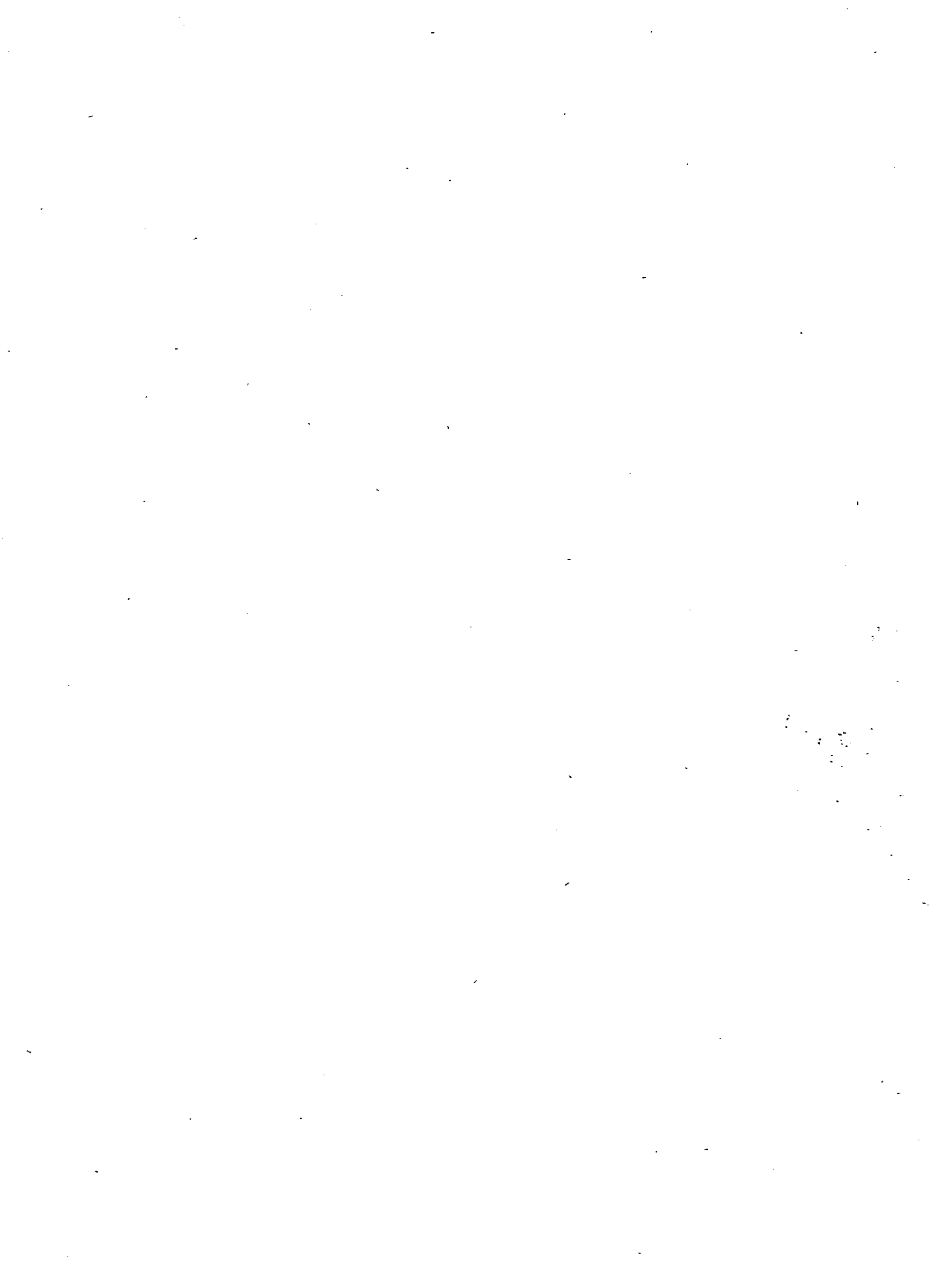
أضل من رسالة مغفلة العنوان..

وأنني سوف أظل واقفا على نواصي..

السكك المنحدرة، أبحث عن مكان*

* * *

* الكلمات للشاعر «صلاح عبد الصبور» من قصيدة «وقال في الفخر»



الغفران والدم

تستطيعون أن تقولوا بملء أفواهكم إنني في «مركز سلطة»..

فأنا بالفعل كذلك.. ربما أنا كذلك أكثر مما ينبغي..

فوظيفتي تتيح لي التحكم بالكثيرين ممن هم دوني..

ولست أخفي عليكم مدى سعادتي بهذا الأمر..

إنكم لا تستطيعون تصور مبلغ سعادتي وأنا أتحدث فيصمت الجميع ليستمعوا بكل انتباه..

وأنا أغضب فيترضاني الجميع..

وأثور فأرى نظرات الخوف والرهبة بعيون كل من حولي..

لست أخفي عليكم قدر الحبور الذي يملؤني وأنا أسمع كلمات التملق الكاذبة وهي تضفي عليَّ صفات لم أمتلكها يوما..

وأنا أجد الجميع يتحايلون ليحصلوا على موعد لن تزيد مدة دقائقه على عدد أصابع اليدين.. وأنا بالطبع لا أمنحهم ذلك الشرف إلا بعد محاولات كثيرة.

لقد أصبحت متعتي الوحيدة في الحياةِ هي أن أرى الناس يتهاوون حولي كفراشات جذبتها النيران..

صار كل غضب أصبه على أحدهم وأراه لا يستطيع لي ردا يزيد تألقي..

وصارت الدموع التي يسكبها الآخرون أمامي قطرات المطر التي تنعشني..

وصار إذلالهم مسرتي وفرحي..

إنني أفكر مليا قبل أن أقدم على أي خطوة؛ فذروة نشوتي تأتي حين أشعر أنني أستطيع أن أظلم دون أن يملك أحد حيلة في ردعي، فأظل أفكر كيف أضع مَن أمامي في موقف لن يستطيع معه إلا أن ينفذ ما أريد..

وأحيانا أخرى أفضل أن أضعه بموقف العاجز معدوم الحيلة؛ فأنا أقدم له خيارات جميعها مستحيلة ولا يجد أمامه إلا أن يتخلى عن حاجته برمتها، أو يحاول مرة أخرى يحدوه أمل واهٍ بأن تملقي واستجدائي قد يمنحانه خيارا آخر يستطيع إنقاذه، وأنا بالطبع لا أفعل بالنهاية إلا أن أستمع إليه ثم أمنحه خيارات ربما كانت أسوأ!!

وأنا أشعر حينها أنه فأر قد وقع بمصيدة متسعة مستديرة، وأنني

الطفل المكلف بمداعبته..

أتتعجبون من أفعالي؟

هل تحسبونني مجنونا.. مختلا.. مجرما؟!

إنني أرجوكم أن تتمهلوا قليلا لتحكموا في النهاية..

هل أنا كما تحسبون أم أن الآخرين يستحقون تلك الألقاب؟!

لقد كنت يوما رجلا آخر..

بل كنت فتى آخر؛ لأن ذلك كان منذ زمان بعيد..

لقد كنت ذات يوم رقيقا جدا.. خجولا جدا.. وكنت أشعر بآلام الآخرين ربما أكثر مما يفعلون.

وُلدت لأسرة متماسكة نفسيا وماديا، وكان كل شيء يسير على ما يرام. كان أبي رجلا كريما، وبيتنا كان مفتوحا للجميع على الدوام، وكان أبي يلبي رغبات أمي قبل أن تلفظ بها، يكفيه أن يراها في عينيها حتى يسارع بتنفيذها وتصير حقيقة.

وكانت أمي امرأة شديدة الرقة..

أرق من أن تحيا في هذا العالم المريض..

وكنت بذلك الوقت أرى الحياة جميلة..

وكان ذلك آخر عهدي بجمالها..

حتى جاء ذلك اليوم..

كان يوما ككل الأيام..

وكان حادثا كعشرات الحوادث التي تقع يوميا..

لكن الأمر لم يكن كذلك أبدا بالنسبة لي..

فقد توفي أبي بذلك الحادث، ونجوت وأمي لنواجه مصيرا أسوأ من الموت..

مات أبي لتعرف أمي للمرة الأولى بخسارة شركته الكبيرة وإفلاسها..

فقد فعل كل ما بوسعه حتى يجعلها لا تعرف بالأمر..

لكنه مات قبل أن يتداركه..

واضطرت أمي لبيع منزلنا الجميل حتى تستطيع سداد ديون الشركة، وانتقلنا للعيش بمنزل أصغر..

وظل حنيني لبيتي يقتلني، وظننت أن ذلك أسوأ ما يمكن أن يحدث بعد فقدي أبي..

كنت حينها ما زلت لا أفقه شيئا عن الأرض السوداء..

فبعد ذلك لم تستطع أمي أن تقوم باحتياجاتنا؛ فقد كان أبي يدير عملا خاصا لم يترك لنا معاشا بعده، وهكذا اضطرت أمي للعمل الذي كان يكفي إيجار المنزل بالكاد ليتبقى منه فتات لا يصلح لشيء..

وانتقلت من مدرستي إلى أخرى حتى نستطيع القيام بالمصروفات التي صارت باهظة الثمن..

أذكر أنني كنت أبكي كثيرا؛ فقد اكتشفت أنني لم يكن لي صديق واحد بتلك المدرسة..

لقد تخلوا عني جميعا بمجرد أن تركت المدرسة..

لم يحاول أحدهم أن يتصل بي بعدها..

ربما تلقيت مكالمة أو اثنتين من هذا أو ذاك، لكن بمرور الشهر الأول كان الجميع قد نسوا تماما أنهم عرفوني يوما..

نسوا أننا كنا قد تشاركنا الطعام أو الضحك يوما..

لقد قمت بشطب اسمي من سجل المدرسة كأنني محوته من ذاكرتهم، بل من حياتهم كلها..

لقد كانوا لا يزالون غارقين بمزاحهم.. ومجموعاتهم.. وحماقاتهم؛ لذا لم يشعروا بغيابي للحظة..

وهكذا قررت أنني لن أحاول الاتصال بأي منهم مجددا، ولن أسمح لهم باحتلال أي جزء من تفكيري بعد ذلك أبدا؛ فقد محوتهم من حياتي تماما كما فعلوا بي، لعلي بذلك أقوم ببعض الانتقام ولو أمام نفسي فقط..

وعرفت أن البشر ليسوا جميعا ملائكة..

وبمدرستي الجديدة حاولت أن أتخطى أخطائي..

قررت أن أكف عن اتخاذ أي أصدقاء، فقد كنت غنيا جدا عن صدمة أخرى..

لقد تعلمت أن أحادث الجميع.. وأبتسم للجميع..

دون أن أنسى لحظة ذلك الجليد الذي صار يغطي كل ما بداخلي..

ومع كل يوم يمر علينا أنا وأمي كانت مطالبنا تثقل كاهلنا بشكل أكبر.. فقد صار إشراق الشمس الباهر لا يعني لنا سوى مطالب جديدة وعجز جديد..

وكانت أمي تحاول التماسك بكل قوتها..

قامت بكل ما استطاعت..

بل وبما لم تتخيل يوما أنها تستطيع القيام به..

لقد اضطرت أمي لطلب بعض المال من عم لي هو الأخ الأكبر لأبي..

وإذا كنتم لم تدركوا الإجابة بعد؛ فقد قوبل طلبها بالرفض..

ولم يكتفِ بذلك، بل قام بطردنا حتى لا نكرر الطلب مرة ثانية فيما بعد..

كانت صدمة أمي أكبر من أن تحتملها، وأقسم إنه لولا وجودي لكانت قد ألحقت بنفسها مكروها..

خرجت وأنا أحتضن أمي أحاول أن أحميها من عالم لم أعرف كيف أواجهه..

كان شعوري بالعجز والصغر لا يوصف..

خرجت ضعيفا جدا.. صغيرا جدا.. مهانا جدا..

كنت أتمنى لو أستطيع احتواء أمي بداخلي..

أن أدخلها بجسدي، أو أضعها بعيني وأغلق عليها جفوني..

لم أدرِ ما أصنع..

الأرض كانت أصلب من أن أخترقها، والسماء أبعد من أن أطولها..

كنت أرى الجدران تتقارب وتعتصرني بينها غير أني لست أملك فعل شيء..

لكن أمي في النهاية لم تيأس..

قصدت كل من عرفتهم، خاصة أولئك الذين ساعدتهم بأيامنا الخالية..

وكنت أنا دائما هناك..

أحيانا أصرخ بها كي تكف عن ذلك، فيزيد بكاؤها، ويزيد صراخي..

وأحيانا كنت أصر بشدة على فكرة تركي للمدرسة ومساعدتها بأي عمل، لكنها كانت تقابل هذه الفكرة بالكثير من الحزم..

وأحيانا أخرى كنت أبكي بين يديها وكانت هي تحتضنني وتبكي، فيزيد بكائي كذلك..

وفي النهاية تفضل علينا أحد إخوتها ورضي أن يقرضها بعض المال، الذي ما كاد يأتي حتى نفد..

ولن أنسى ما حييت اليوم الذي جاء يطالبها فيه بدينه..

لقد كان يعرف أنها لا تملك المال، وكان على يقين تام من أن بيتنا على عروشه..

وعلى الرغم من ذلك اتصل بها لتفعل أي شيء حتى يأتي ليجد

نقوده التي ادعى أنه يحتاجها بشدة لضائقة ألمت به في ذلك اليوم بالذات الذي تصادف أنه اليوم المحدد مسبقا لسداد الدين..

في ذلك اليوم كنت نائما حين أيقظتني أمي في هلع..

كانت أول وآخر مرة أرى فيها وجها قد أضاع الاصفرار تفاصيل ملامحه..

فقد كان هلعها بذلك اليوم أكبر من الموقف وأكبر من حدود الكلمات..

قمت فزعا لست أدري لماذا أيقظتني.. ماذا أرادتني أن أفعل؟!

وجاء الرجل على الرغم من كل شيء..

جاء ليطالب بحق لا نستطيع إنكاره..

وبذلك اليوم رأيت أمي تستجدي أخاها لأجل قليل من الانتظار..

لكنه لم يكن بذلك الكرم..

في الواقع لم يكن هناك أحد بذلك الكرم..

وحين يئس من الحصول على ماله يومها، منحها مهلة أخيرة كي تدبر النقود..

ولم ينسَ قبل خروجه أن يحدجها بنظراته النارية التي كانت

تتهمها بسرقة ماله في وضوح..

وعرفت حينها أن البشر جميعا حفنة شياطين..

لم نكن ندري متى ستتحسن الظروف..

لكنها تحسنت بعدها سريعا جدا..

أسرع مما كنت أتخيل..

فلم تمكث أمي بعد ذلك اليوم طويلا.. لقد ماتت بعدها بأيام قليلة..

ماتت هكذا.. بمثل سهولة كتابة أحرف الكلمة..

لم يكن حادثا، ولا كان مرضا..

لقد قتلها القهر..

استيقظت من نومي لأجدها مستلقية بجواري هامدة تماما..

بل كانت هادئة تماما..

أتعرفون أنني لم أبكِ حينها..

ولا بكيت من يومها؟

كل ما أحسست به هو شعور براحة غريبة غمرتني من قمة رأسي حتى قدمي..

كان شعوري كمسافر مكدود وجد مرفأه أخيرا..

حادثتها بصوت مرتفع، أخبرتها أنني لم أكن أستطيع النـوم منـذ حادثة أبي لشدة خوفي وقلقي عليها.. والآن لم يعد ثمة ما أقلق بشأنه..

يمكنني أن أنام أخيرا الآن..

أحكمت الغطاء حولها ثم قبّلتها واستلقيت بجوارها وغبت في نوم عميق..

فالآن فقط أستطيع أن أكف عن الصراخ..

* * *

والسؤال الآن:

أين الخلل؟! ومن المختل؟!

لقد بكيت حتى لم يعد لديَّ دموع.. بكيت حتى الصمت التام..

ولم يستمع أحد لبكائي ولا لبكاء أمي.. ولم يلتفت أحد..

وظلت الحياة تسير فوق أحلامنا.. وفوق أجسادنا..

وظلت تسير وكأنني لا أحد.. لا شيء على الإطلاق..

وهكذا تعلمت ألا آبه لأحد ولا أسمع لأحد.. أين كان الجميع حين كنت وحدي تماما؟!

إنهم يستمعون الآن فقط لأني نجحت في أن أرغمهم على ذلك..

ولو كنت فشلت لظل الأمر كما كان، ولظل الصمم يصيب الجميع..

لقد تعلمت كيف أن الهزيمة يتيمة، والنصر له ألف ألف أب..

فلا تسألوني الآن غفرانا وطيف أمي ينام جـواري كـل ليلـة خاليـا من الدموع والدم..

ولا تطلبوا مني رحمة.. فأنا لم أعرف كيف تبدو..

* * *

العقاب لا يقع على الجميلات

تكبرني أختي بعام واحد..

اعذروني لأني بدأت حديثي عنها وليس عني..

فهي قد شكلت بحياتي أكثر مما فعلت شخصيا.

لم تكن أختي شديدة الجمال، لكنها كانت تملك الكثير من الجاذبية..

كانت تملك ذلك الوجه الذي تحب أن تراه، وأن تتحدث معه، والذي تشعر أنه ليس غريبا عنك وأنه قد سكن نفسك منذ الوهلة الأولى..

ولم يكن ذلك كل شيء..

فمنذ صغرنا كانت أختي تحاول بكل جهدها أن تصير «أنثى»، كهؤلاء النسوة اللاتي يظهرن على الشاشات وبأغلفة المجلات..

وقد بذلت كل ما بوسعها لتحقيق ذلك، شاهدت الكثير وقرأت الكثير وسمعت الكثير، حتى تعلمت بالنهاية كيف تسير وكيف تجلس وكيف تتحدث وكيف تضحك..

تعلمت متى تكون مثيرة ومتى تكسوها البراءة..

متى تصبح مرحة ومتى تصير كئيبة..

وظلت هكذا، حتى إنني لم أعد أعرف أين أختي التي عرفتها بصغرنا..

ذابت بكل ذلك، وصار التلون هو طبيعتها الوحيدة..

حاولت أختي في بداية الأمر أن تشركني معها..

لكننا فشلنا في أن تجعلني مثلها..

لقد حاولت لفترة أن أحاكيها..

تجملت وافتعلت وكذبت.. ونجحت..

وكانت علاقتي بأختي كأفضل ما يكون في هذه الفترة..

وتحسنت علاقاتي مع كل من حولي..

لكنني في النهاية لم أستطع الاستمرار..

شعرت أنني لست سعيدة بكل تلك الإنجازات التي اعتبرتها أختي عظيمة.. فقد أحسست أن شخصا آخر كان يحيا مكاني، وعلى الرغم من كل ما حقق فإنه لم يكن أنا..

لذا فضلت أن أكون نفسي على الرغم من كل ما يعنيه ذلك من متاعب..

وهكذا افترقت وأختي عند منتصف الطريق، لم تستطع إحـدانا أن تساير الأخرى ولو كذبا، وكـان لا بـد أن تـذهب كـل منـا في حياتهـا كمـا اختارتها..

صغيرة جدا أدركت كل هذا، وصغيرة جدا اتخذته مبدأ لي..

وكان يمكن أن يكون مبدئي هذا رائعا لولا الآخرون..

لولا التفرقـة الـتي كـان يتعمـدها مدرسـونا وأقاربنـا وجيراننـا.. والناس أجمعون..

حتى أبي وأمي وقعا في هذا التمييز بيننا..

كنت أنا أعاقَب لأتفه الأسباب..

ولا يتورع الجميع عن نقدي وتجريحي باستمرار..

ولكن مع أختي فقد كان الأمر يختلف..

كان أبي ينهرها أحيانا، لكنه لم يفعل ذلك أبـدا إلا ولـسان حالـه يصرخ بالعكس..

فكان ينهرها إذا ارتدت ملابس مفتوحة والابتسامة تعلو وجهه..

وحين علم أنها أخذت بعض المال خلسة لتشتري به ثوبا أعجبهـا ظل يثني على الثوب وتناسى المال..

أما أمي فكانت تتباهى بها في كل مكان..

فهي أم لأجمل البنات، ولن يفوز بهذا الجمال إلا أثرى الرجال..

وهكذا كانت لا توجه لها أي نقد، وتدافع عن كل أفعالها باستمرار..

وكانت لا تكلفها بأي عمل؛ فهي تخشى على يديها الجميلتين من أي عمل ولو يسيرا..

وكانت تحادثها لا كما تحادثنا..

وتطعمها لا كما تطعمنا..

فهذا القوام المشوق يجب ألا يأكل إلا أطيب الثمار..

وكان ما يفعله أبي وأمي ينطبق على جميع من حولنا..

فالجميع كان يدللها ويشجعها على ما تفعل مهما فعلت..

وأذكر أن أختي تغيبت ذات مرة عن أداء أحد الاختبارات، وكان معلم هذه المادة شديد الصرامة والحزم، فذهبت مع أختي حتى تعتذر له، خاصة أنها لم تقدم اعتذارا مسبقا عن الغياب..

يومها كانت صدمتي في معلمي وقدوتي لا توصف، وكأنني رأيت صرحا يتهاوى أمامي..

لقد حادثها بلطف غريب، وقبل اعتذارها قبل أن يسمعه، ويكفيه أنها سارت كل تلك المسافة الطويلة وأتعبت قدميها الجميلتين حتى وصلت إلى مكتبه الذي كان في الطابق الأرضي!!

وانهارت يومها قدوتي..

وانهار معها أملي في أن يعامل أحدهم أختي بقليل من العدل..

أن يقومها أحدهم إذا أخطأت..

أو أن يثني عليها لأي شيء في الوجود دون أن يتدخل جمالها..

وهكذا صار رسوبها المتكرر غير ذي بال، فهذا الجمال قادر على أن يفتح كل الأبواب بمفرده..

وقد تركوا الدراسة والعمل إلى من كن مثلي ممن هن أقل جمالاً..

في البداية كانت كل صغيرة من هذه التفاصيل تستفزني حتى الجنون..

ولكنني مع مرور الوقت تعودت على ذلك..

ثم بدأت أنظر له كحقيقة وواقع مسلم به.. كالحياة.. كالموت.. كأشياء نحب أو نكره، لكننا لا نملك لها شيئا..

ثم بدأ حنقي يذوب مع الوقت، وبدأت ألتمس للناس بعض العذر

فيما يفعلون..

ربما هي فطرة فينا أن نعتبر كل جميل طيبا وكل قبيح خبيثا على الرغم من أنه ليس ثمة علاقة على الإطلاق!!

وعلى كل حال فقد كان لا بد أن تؤتي هذه المعاملة ثمارها..

تخيل إنسانا يتأكد من غياب العقاب مهما فعل.. فماذا قد يفعل حينها؟!

حسنا، كل ما يمكنك أن تتخيله قد حدث بالفعل..

صارت أختي لا تبالي برسوبها المتكرر حتى فُصلت من المدرسة..

وصارت تخرج وقتما تشاء وتعود متى يحلو لها..

حتى صارت تقضي أياما كثيرة في أسفار لا ندري أين أو من يصحبها!!

وبعد أن كان أبي وأمي لا ينهرانها عن شيء لأنهما لا يريدان، صارا لا ينهرانها لأنهما لا يستطيعان..

وقد أصبحت تعاملهما بعقوق كامل ووقاحة بلا حدود..

فهي لا تعترف بأي قيمة أو أي معنى، فقيمها الوحيدة هي ما تتفق مع أهوائها..

وحين هددها أبي بطردها من المنزل أجابته بتهديد مماثل بأنها تستطيع أن تترك المنزل ولن تعجز عن إيجاد ألف مأوى وستجلب له بذلك عارا لن يستطيع تجاهله أبدا..

وهكذا جنى أبي وأمي ثمرة ما زرعا..

وكبر العملاق الذي صنعاه ليأكلهما بلا رحمة..

ومثلما لم أستطِع القيام بشيء وأنا أراهم يفعلون ما فعلوا فإنني لم أستطِع القيام بشيء وأنا أراها تفعل ما تفعل..

لكن على الرغم من كل متاعبنا فقد مرت السنون.. وتزوجت أختي أخيرا برجل أحبها كثيرا، وكان ينفذ كل ما تريد مهما كان فوق طاقته، ويصنع أي شيء حتى يرضيها..

ولكنها لم تكن لترضى أبدا..

فقد تزوجته لأنه كان أغنى مَن تقدم لخطبتها، وكان الوحيد القادر على تحقيق أحلامها التي لا تنتهي، إلا أنها لم تحبه يوما..

ولم تستطع أن ترى إلا عيوبه..

أما زواجي فقد كان لأختي أيضا دخل كبير فيه، ألم أقل لكم إنها قد شكلت الكثير من حياتي؟!

ذلك أنني كنت أحادث زوجي في أول معرفتي به وأخذنا الحديث حتى وجدته يقول:

- مع احترامي الشديد، إلا أنني أعتقد أنكم تتساهلون كثيرا مع أختك، وأتمنى لو تستطيعين نصيحتها ربما تعدل عن بعض ما تفعل..

كانت دهشتي كبيرة لكلماته؛ فقد كانت المرة الأولى التي أسمعها من أحدهم دون أن يكون ممن تجاهلتهم أختي، أو واعظا، أو امرأة تغار منها..

وحاولت أن أتأكد أن سمعي لم يخنِّي، فبادرته قائلة:

- لكنك تعلم أنها ربما تكون مأخوذة قليلا بجمالها، وربما...

ولم يدعني أكمل، فقد وجدته يقاطعني بشيء من الحدة قائلا:

- لا مبرر للخطأ.. إن هذا الجمال نعمة من الله - سبحانه وتعالى - وعليها أن تشكر النعمة بحفظها؛ فالجمال لا يكفي إذا كان وحده..

فكانت هذه الكلمات بداية لإعجاب بزوجي صار يزداد مع الأيام، وأعتقد أنه كذلك لن ينتهي أبدا..

ولم يمض وقت طويل حتى صار لي طفلة وصار لأختي طفل يشبهها كثيرا..

وحسبت أن الزواج سيغيرها أو أن طفلها سيفعل..

لكنني كنت مخطئة..

كانت قد سافرت مع زوجها لمدة شهرين وتركت معي مفتاح منزلها حتى أعتني به لحين عودتها..

وحين عادت كنا قد نسينا كل شيء عن ذلك المفتاح، وذات يوم وجدته مصادفة بين أغراضي فقررت أن أذهب إليها بعد الانتهاء من عملي حتى أقوم بزيارتها وأعطيها المفتاح..

لم أكن أفكر بشيء حين طرقت الباب قليلا ثم فتحته بالمفتاح مباشرة..

حينها تمنيت لو لم أجد هذا المفتاح أبدا..

فقد وجدتها مع شاب كانت تعرفه قبل زواجها لكنه ما زال أعزب..

وكانا بوضع لم أعرف معه ما أقول..

سارعت بالرحيل، فلم يكن هناك ما يقال..

وعلى الرغم من أنني كنت أعرف عن سلوك أختي السيئ من قبل فإن صدمتي كانت كبيرة..

لم أتخيل أن الأمور تصل بها إلى هذا الحد..

كانت صدمة حقيقية هزتني بشدة..

وظللت أفكر ماذا عليَّ أن أفعل؟!

لم أستطع أن أروي لزوجي ما حدث على الرغم من احتياجي الشديد لمشورته، إلا أنني اعتبرت كل ما يمس أختي يمسني في المقام الأول..

وقررت أنني سأنسى الموضوع برمته..

فلم يكن بيدي شيء، والنصيحة لا تجدي نفعا معها..

لكني في اليوم التالي فوجئت بها تتصل بي هاتفيا..

توقعت أنها ستعتذر وتعطي مبررات.. أو أنها ستشكو زوجها.. أو حتى ستتجاهل الأمر تماما كأن لم يكن..

توقعت أي شيء إلا ما حدث..

لقد وجدتها غاضبة محتدة، وفي لهجة قاسية نهرتني بشدة لأني ذهبت إلى منزلها دون أن أخبرها ودخلت دون إذن، ثم تمادت في إهانتها لي دون مبرر، وحذرتني أن أتخيل أنه يمكن لبلهاء مثلي أن تنصحها أو تتدخل في حياتها..

وأنهت المكالمة في عنف دون أن تمنحني فرصة للرد..

كانت على يقين من أنني لن أجرؤ على فعل شيء مراعاة لصغيرها الذي كانت تعرف محبتي له وحرصي عليه..

لكنني هذه المرة لم أستطع الاحتمال أكثر..

كان يجب أن يوقف أحدهم هذا الفيضان الذي لا يأبه لشيء..

فقررت أنني لن أصمت بعد اليوم أبدا..

أخبرت زوجي بكل ما حدث، وكان متفهما جدا كعهدي به..

واستدعى زوجها إلى منزلنا وحاول أن ينبهه للأمر دون تفاصيل، على غرار «حرّص ولا تخوّن» و«الناس يقولون»..

لكن رد فعل زوجها كذلك كان غير متوقع.. فقد ثار على زوجي وكاد يهجم عليه ليضربه حين وجدت نفسي أقتحم عليهما الغرفة وأخبر زوجها بكل ما حدث..

فغادر مسرعا دون أن ينطق ببنت شفة..

ونهرني زوجي بشدة على تلك الحماقة، لكني كنت أرى أن زوجها هو أبي وأمي ومدرسونا وكل الناس الذين صنعوا من أختي ما هي عليه..

وكأنه قد زاد من سخطي على العالم بأسره فلم أتمالك نفسي..

لكني ندمت بعد خروجه على ما فعلت..

واعتصر فؤادي ألما شديدا يسألني كيف أفعل هذا بأختي مهما كانت مبرراتي!

وخشيت عليها بشدة، وفكرت في ابنها الذي لو حدث شيء فسأحمل ذنبه في رقبتي.. وصار شعوري بالذنب نحوها يمحو كل مشاعر غضب أخرى..

ولكن فيما بعد تبين لي أن قلقي عليها كان في الواقع بلا داعي؛ فلم يحدث شيء من مخاوفي..

لأنه لم يحدث أي شيء على الإطلاق!!

لم يفعل زوجها شيئا على الرغم من يقيني أنه كان يصدق ما أقول؛ لأنه بالتأكيد قد رأى شواهده أمامه، لكن كانت أختي وكأنها أكبر من الخطيئة نفسها..

لست أدري هل استطاع أن يغفر.. أم أنه أقنع نفسه بأن كل ذلك كذبة كبيرة..

أم هو كان كمن أدمن شيئا يعلم ضرره ولا يمكنه الاستغناء عنه؟!

حقيقة لست أدري كيف سوّى الأمر مع نفسه..

ولكن لم يعد يعنيني ذلك الآن.. فقد نفضت يدي من هذا الهم، واتفقت وزوجي أن ننسى الموضوع..

ولم أرها بعدها إلا نادرا، فقد كانت لا تذهب لوالدينا إذا علمت بوجودي، وكنت أنا أفعل نفس الشيء، ولم يكن ذلك صعبا لأنها كانت لا تذهب إليهما إلا في المناسبات كل عام أو أكثر..

والآن فإنني أعرف أن زوجها سيدفع يوما ثمن ما فعل..

تماما كما حدث مع من سبقوه..

وأعرف أنها كذلك ستدفع الثمن..

إن لم يكن في هذه الحياة ففي حياة أخرى..

فالذنب لا يُنسى والديان لا يموت..

ولكن ما أتوق له حقا هو ذلك اليوم الذي أرى فيه مجتمعا لم يعرف العدالة يوما..

يدفع ثمن ذلك باهظا..

* * *



ابن الجيران

كانت عيناه هما ما تميزانه بشكل خاص..

عينان عميقتان، متألقتان بالبريق والاندفاع، ومفعمتان بالحياة..

عينان جذابتان، تتكلمان بطلاقة ويشع منهما الصدق والنور..

وكان يسكن بالبناية المواجهة لنا..

وكنت أنا حينها طالبة بالثانوية العامة..

وكان يمكن لأجمل قصص الحب أن تولد من هاتين العينين..

لولا أنني للأسف كنت محنية تحت وطأة الهموم التي أحمل..

فقد كنا فقراء، وكنت أكره الفقر..

لهذا لم يجد الحب مكانا بحياتي التي يملؤها الشقاء..

فكانت الدراسة هي أملي الوحيد للتغيير، وهي السبيل الوحيد أمامي نحو المستقبل، أو على الأقل هكذا كنت أعتقد حينها..

فبذلت لها نفسي، وعكفت عليها، ولم أهتم بأي شيء سواها، ولم أفكر بغيرها..

جمعتني به لقاءات قلائل لم أُعِره فيها اهتماما كبيرا؛ لأني كنت دائما مشغولة البال، فحين ينتهي اللقاء كنت أنسى كل شيء عنه لأعاود الغوص في تلك الدوامة التي صنعتها لنفسي..

ومرت الليالي عليَّ طويلة، حتى انتهت سنوات الدراسة المريرة..

ولم أمنح نفسي فرصة للفرحة بتخرجي وانتهاء دراستي الشاقة، فقد كان عليَّ التفكير بالعمل ومواجهة الحياة العملية بكل مصاعبها..

هل تعرفون كم هو صعب أن يجد الفقراء عملا؟!

هل تفهمون كم هو شاق ومعجز أن تبدأ حياتك من تحت الصفر؟!

لقد بدأت حياتي تفصلني مسافة طويلة لأصل إلى الصفر.. ولأبدأ منه..

وكان ذلك وكأنه المستحيل..

وفي تلك الأثناء وجدته يعرض عليَّ الزواج بشكل غير مباشر..

لم أفهم الأمر منذ اللحظة الأولى، لكني بعد تكرار تلميحاته فهمت..

والحقيقة أنني لم أبذل الكثير من الوقت لأناقش الأمر مع نفسي..

فقد كانت المسألة بالنسبة إليَّ محسومة دون مناقشة، فلم تكن

ظروفي – التي أحتاج إلى من يساندني فيها بقوة – تسمح بالزواج من شاب يبدأ حياته ويحتاج هو نفسه إلى كل مساعدة ممكنة..

وهكذا وجدتني دون وعي أرفض الفكرة من أساسها وأتجنبه تماما..

ومضت الأيام، ونسيت كل شيء عن الموضوع، ومضيت في طريقي الذي شققته بصعوبة بالغة..

ثم تزوجت زواجا تقليديا رأيته الأنسب لظروفي ولحياتي التي رسمتها منذ البداية خطا مستقيما..

وهنا تبدأ حكايتي الحقيقية..

فلم يمض الشهر الأول من زواجي حتى رأيت هذا الحلم..

كانت ليلة طويلة، وشعرت وكأنه حلم ممتد لا ينتهي..

رأيت هذا الشاب الذي كان جاري وكأنه يحيا معي، كنا نثرثر ونطهو ونأكل ونمرح..

ونمت في آخر الحلم لأجد زوجي يوقظني وقد جاء الصباح!!

تعجبت لهذا الحلم، لكنه كالعادة لم يشغل الكثير من تفكيري..

لكن المشكلة أنه تكرر.. وتكرر.. وتكرر..

كنـت أقـضي يـومي الطبيعـي لأقـضي بعـده يومـا افتراضـيا في أحلامي!!

صار ليلي نهارا وحركة وحياة..

كنت أحظى براحة الجسد، لكني فقدت هدوء النفس..

صرت وكأني أحيا مع رجلين.. وبطبيعة الحال كان خيرهما الـذي في أحلامي..

فنحن في أحلامنا نشعر بالخفة وبالسعادة بطريقة مختلفة..

هذه الأماكن التي رأيتها في أحلامي لم تكن لتوجد على الأرض..

هذه السعادة لم تكن لتوجد في هذه الحياة..

وهذا الرجـل الـذي قـد صـار حرفيـا «فـارس أحلامـي» لم يكـن في الحقيقة ليحيا بين البشر..

ومع تكرار الأحلام بدأت أشعر بالإرهاق..

توترت أعصابي بشكل ملحوظ؛ فقد كانـت هـذه الأحـلام تـدفعني للتفكير في هذا الفارس وأنا مستيقظة على الرغم من أني لم أفكر فيه بهـذا الشكل أبدا من قبل..

وأورثني هذا شعورا عميقا بالذنب تجاه زوجي..

حاولت السيطرة على مشاعري وأفكاري قدر الإمكان، وظللت أكرر لنفسي أن هذا مجرد حلم، وأنني حتى لو كنت قد تزوجت هذا الرجل في الحقيقة فإن واقع الحياة معه كان حتما سيختلف تماما عن أحلامي..

لكن كل هذا لم يمنع مشاعري المتناقضة من الذنب والندم من بذر بذورها داخلي، ورأيت هذه البذور تنمو دون أن أستطيع إيقافها.

لماذا لم أمنحه حينها بعض الوقت؟!

لماذا لم أمنح نفسي فرصة للتفكير؟!

وبدأت أتوتر أكثر..

وتملكني الغضب على نفسي مرتين:

مرة لأنني أخطأت في حق الرجل الذي لم أتزوجه..

ومرة لأنني أخطأت في حق الرجل الذي تزوجته..

واستمرت هذه الأحلام التي صارت تنغِّص عليَّ عيشي، ولا تفتأ تعدني بالمستحيل..

استمرت الأحلام معي لمدة عام كامل..

عام كامل عشت خلاله هذا العذاب الذي لم يكن ينقذني منه غير

بعض الليالي القليلة التي كانت تنقطع فيها الأحلام فتمنحني هدنة أستجمع فيها نفسي..

ودعوت الله أن يزيح عني هذا البلاء..

وبعد هذا العام رزقني الله – سبحانه وتعالى – بمولودنا الأول..

ولدهشتي فقد كانت عينا طفلي في غاية الجمال والرقة..

كانت عينا طفلي ساحرتين وقد رأيت فيهما ما كان أجمل من كل أحلامي..

رأيت فيهما الجنة..

وتوقفت الأحلام..

توقفت فجأة كما بدأت فجأة..

وعرفت أنني ربما كنت أحمل لهذا الشخص حبا أو بعض حب.. لكني لم أفهمه في حينه..

وعرفت أنه ربما كان قدر الإنسان أن يلاحق أحلامه..

وحين لا يفعل فإن أحلامه هي التي تظل تلاحقه!!

وأخيرا انتهت أحلامي بواقع أجمل من الحلم..

* * *

نور

يولد الإنسان كالصفحة البيضاء..

لا ذاكرة.. لا مبادئ.. لا أفكار.. لا شيء على الإطلاق..

ويتعلم الإنسان كلماته الأولى وأفكاره الأولى من والديه..

أو هو عادة يفعل ذلك..

لأن هذا لا يحدث دائما..

ولأن هذا لم يحدث معي..

أنا «نور».. على الرغم من أني قد عشت أفتقد النور كثيرا، وتتوق روحي إليه، حتى وجدته أخيرا بفضل الله كما سأحكي لكم..

ولدت لأبوين مصريين يعملان ببلد عربي، وقد حددت هذه الحقيقة الكثير من حياتي..

فقد كانت هذه مأساتي الأولى..

كان أبي وأمي يعملان لساعات طويلة، وحين يعودان إلى المنزل يكونا قد استهلكا كل طاقتهما خارجه.. فلا يتبقى لي أي شيء.. حتى

الابتسامة أو الكلمة كان الإرهاق والتعب يمنعانهما..

وفي خضم هذا العمل المتواصل المرهق نسياني تماما..

وتركت أمي مسئوليتي بالكامل إلى «بام»..

إنها «باميلا» مربيتي الفلبينية الخاصة..

وكانت «بام» لا تتحدث إلا القليل من العربية، وكانت تنهي عملها عند الساعة الحادية عشرة مساءً، فتدخل غرفتها وتغلق الباب..

كانت تقرأ أو تنام.. لا يهم.. المهم أنه لم يكن مسموحا لي أن أخاطبها أو أدعوها بعد هذا التوقيت..

كان هذا هو «وقت النوم» المقيت الذي أصير فيه وحدي تماما بلا حتى «بام» الصموت..

وكبرت – ولا أقول تربيت – حتى أنهيت دراستي الثانوية، وعدت إلى مصر وحدي كي أكمل تعليمي الجامعي..

وكنت في منتهى السعادة عندما علمت أنني سأكمل دراستي في مصر، فقد جئت مصر وكلي أمل وشوق بأن حالي سيتغير إلى الأفضل؛ ففي مصر الأهل والوطن والحب والأمان..

ونزلت من الطائرة وأنا فاتحة ذراعي وقلبي لهذا الوطن الذي

تمنيت أن أجد فيه نهاية لوحدتي..

وانحنيت وقبّلت تراب وطني بكل حب..

واستقبلني عمي الأكبر في المطار بابتسامة باهتة، لم ألتفت إليها كثيرا، فقد قلت لنفسي إنه لم يرني منذ كنت طفلة.. فماذا أنتظر؟!

وأخذني عمي إلى «بيت العائلة».. وهو عبارة عن بناية كبيرة يسكن بها أعمامي جميعا، وكان لأبي شقة منفصلة في هذه البناية، التي من المفترض أني سأعيش فيها..

أخذني عمي إلى شقته حيث كان الجميع بانتظارنا..

واندهشت حين قابلني الجميع بنفس الابتسامة الباهتة التي قابلني بها عمي، حتى بنات أعمامي ومن هم في مثل سني.. كان الجميع يحمل ذات الابتسامة الصفراء الخالية من الود والتي تبعد أكثر مما تقرب..

وقلت لنفسي إن الأيام لكفيلة بأن تقرب بيننا، وإن كل هذا سيزول مع الوقت..

لكن الأيام كانت تمر، والوقت يمضي، والجليد الذي بيننا يتراكم ولا يذوب..

حتى صار هناك حاجز صلب عالٍ يفصل بيننا..

وكانت هذه هي مأساتي الثانية.. أو هي امتداد لمأساتي الأولى..

فقد كان سفر أبي وبعده عن إخوته قد صنع بنفوسهم ما صنع.. واعتبروه الأخ البعيد الذي لا يسأل عن أحد ويقطع صلته بالجميع عامدا أو غير عامد..

وإذا أضفنا إلى هذا بعض الغيرة والحقد من النجاح المادي والمركز الذي حققه أبي بعد سنوات عمره الذي أفناه في العمل..

من كل هذا تستطيعون أن تدركوا مأساتي الثانية في مصر..

ففي أيامي الأولى بمصر وجدت نفسي أحيا وحيدة في شقة داخل ما يسمونه «بيت العائلة» الذي لم أجد فيه أي معنى للعائلة.. لم يكن أحد منهم يسأل عني أو يساعدني في أي شيء..

كنت أعد طعامي بنفسي أو أشتريه جاهزا من الخارج..

وحدث أنه بعد مجيئي بأيام شكوت لعمي صعوبة الإجراءات التي لاقيتها في الجامعة، وأنني لم أكن معتادة على المواصلات والزحام في القاهرة..

ووجدت هذا العم في اليوم التالي يحادث أبي هاتفيا، بمكالمة

دولية لم يقم بها من قبل، وكل هذا لكي ينقل لـه شكواي هـذه لكـن بعـد تحريفها، فقد أضاف كلمات لم أقلها لكي يثبت لأبي أن قـرار تعليمـي في مصر هو قرار فاشل.. وكانت نبراته تفيض بالشماتة..

وحزنت كثيرا لما فعله عمي، فلم أكن أنتظر منه ذلك..

وكان هذا درسا قاسيا علمني ألا ألجأ لأحد منهم في مشاكلي.. فقـد تعدى عدم اهتمامهم إلى الشماتة.. وكأنهم يرون أي خطـأ أرتكبـه بمثابـة جريمة لا تعلن فشلي فحسب، لكنها كذلك تعلن فشل والدي في تـربيتي.. بل فشله في حياته كلها..

لكن لحسن الحظ فإن مع كل ضيق يأتي فرج.. ومع كل بـاب يغلـق هناك أبواب تنفتح..

فقد كانت معاملتهم القاسية معي سببا في اقترابي من أبي..

وجدت أبي يصدقني ويكـذبهم، ووجدتـه يـدرك كـل شـيء بعمـق ويفهم الوضع وكأنه معنا..

كـان يعـرف إخوتـه أكثـر مـني.. ويبـدو أنـه قـد أحـس بالـشفقة تجاهي، فظل على اتصال دائم بي..

وقال لي حرفيا:

«افعلي ما شئت.. فأنا أثق بك.. ولا تهتمي لأحد..

وكل خطأ سيقع ستتعلمين منه صوابا»..

وأسعدتني كثيرا هذه الثقة، وأسعدني أكثر الإحساس بأن عندي أبا، على الرغم من أن هذا الإحساس لم يأتِ إلا وأنا بعيدة عنه، وكأنه مكتوب عليَّ أن أحيا وحدي دائما..

وهكذا بدأت حياتي في مصر..

حاولت أن أتعلم من كل شيء عن الحياة في مصر، وكان هذا أمرا صعبا للغاية؛ لأنني كنت في البداية شديدة البلاهة..

كنت في حالة خلط تام.. كل شيء برأسي كان مختلطا..

مثلا لم أكن أفهم حدود الصواب والخطأ في مصر، وكأن هذه الحدود تختلف من بلد إلى آخر..

وذهبت إلى الجامعة في البداية وأنا أرتدي الحجاب، ثم خلعته عند بوابة الجامعة أمام الجميع كما كنت أفعل في المدرسة!!

ووجدت «نهى» – التي صارت بعد ذلك صديقتي – تصرخ في وجهي؛ إذ لا يجوز فعل ذلك في مصر، فإما أن ترتدي الحجاب وإما أن تخلعيه..

وفهمت أن مثل هذه الأفعال في مصر قد تسيء إلى «سمعتي»!!

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها هذا اللفظ يُنطق في هذا السياق.. فـ«سمعة الإنسان» – كما كنت أفهمها – هي شخصيته التي يبنيها أمام الناس.. فهي مواقفه وسلوكه ومصداقيته.. وهي شيء يُبنى على مدار سنوات، ويحافظ عليه الإنسان كما يحافظ على «شرفه» أو «كرامته»..

ولكن «نهى» أفهمتني أننا في مصر نضيف إلى ذلك ملابس الإنسان وطريقة حديثه..

وقد يشيع أحد شيئا عن شخص ما ليلوث سمعته، فقط لأنه يكرهه أو يتنافس معه..

وفهمت من «نهى» أن الناس في مصر يصدقون الشائعات دائما.. بل إنهم يقولون «مفيش دخان من غير نار» بمعنى أنه ليس هناك شائعة إلا وكان وراءها بعض الحقيقة!!

ولم أكن أدرك كل ذلك تماما، لكني احترمته، وحاولت أن أكون أكثر انتباها..

وقد اتفقت معها على كل حال على المبدأ العام؛ فإما أن أرتدي الحجاب وإما أن أخلعه..

على الأقل كان هذا منطقيا..

وظلت «نهى» بعد ذلك مستشاري الأول في كل ما ينغلق أمامي..

ومثلا كنت أصادق في الجامعة شبابا وشابات..

وكان أبي أساسا لا يمنعني من الاختلاط..

لكني حين صرت أكثر انتباها لاحظت أن «العائلة» حين تجتمع في المناسبات تتهامس وراء ظهري.. فقد كنت أتحدث مع شباب من زملائي على الهاتف أمام الجميع.. وكانت هذه «فضيحة» كما سمتها «نهى»..

ففي مصر لا يسمح الجميع بالاختلاط بين الجنسين.. وكانت عائلة أبي ممن يمنعون الاختلاط..

وقد يسمحون به للشباب، لكنهم يحرمونه تماما على الفتيات!!

ولم أفهم كل ذلك في البداية.. فقد تعاملت كما لو كان أبي موجودا، وكان أبي لا يرى عيبا في ذلك..

لكنني للأسف اكتشفت أنه حتى من كن في مثل سني كن يتهامسن عليَّ في خبث، وكن يتحدثن عني دون أن تكلف إحداهن نفسها عناء نصيحتي..

والأدهى من ذلك أنني اكتشفت أيضا أنهن يحدثن شبابا على

الهاتف، لكن في الخفاء.. فهذه أسرار يجب ألا تطلع عليها العائلة وإلا أساءت لسمعة الفتاة!!

ولم أفهم هذا الخلط.. إذا كان الاختلاط خطأ فلماذا يفعلنه؟!

وإذا كان صوابا، فلماذا يجرمنه ويتحدثن عن صاحبته بالسوء كما كن يفعلن معي؟!

لكني في نهاية المطاف حمدت الله أني قد فهمت الأمر سريعا قبل أن أتورط فيما هو أسوأ..

وفهمت معه أني كلما ابتعدت عن هذه العائلة كان ذلك أفضل..

وبدأت أفهم أشياء أخرى عن الحياة في مصر لم أكن أعرفها، ولقد ساعدتني «نهى» كثيرا..

واقتربنا كثيرا من بعضنا، وكانت تسكن في مكان يبعد عن الجامعة حوالي ساعتين تقطعهما يوميا ذهابا وعودة.. فاقترحت عليها أن تسكن معي في شقتي لتوفر على نفسها عناء الطريق، وتوفر عليَّ عناء الوحدة.. ووافقت على ذلك ووافق كذلك أهلي وأهلها..

ومضى النصف الأول من العام الدراسي.. واستطعت تكوين صداقات متعددة في الجامعة..

وصار أبي يحادثني كثيرا، وأمي أحيانا..

لكني على الرغم من كل ذلك كنت أشعر بوحدة عميقة داخلي..

كانت الوحدة وكأنها روحي التي لا تفارقني..

وكأن بداخلي خواء لا يمتلئ..

كنت أتخيل نفسي كثيرا وقد صار قلبي يشبه «بيوت الاسكيمو»..

هل تعرفون هذه البيوت التي يبنيها الناس في المناطق المتجمدة على شكل نصف كرة؟!

كنت أتخيل نفسي وأنا أنكمش داخل قلبي الذي صار أشبه بهذه البيوت وصار يغطيه الجليد..

كنت أرتجف من البرد..

أغلق كل منافذ البيت وأبوابه، لكن البرد لا يذهب أبدا..

وتعبت من آلام وحدتي التي لم أدرِ لها سببا..

وفكرت أنه ربما كان السبب هو أنني قد انقطعت عن الصلاة!!

لقد كنت أصلي بانتظام حين كنت خارج مصر، لكني منذ أن جئت مصر لم أعد أحافظ على الصلاة، وكأني كنت أصلي بحكم العادة وليس لله..

واستوقفني هذا الأمر طويلا.. كنت أحب النبي محمدا – صلى الله عليه وسلم – من أعماق قلبي.. فقد زرت قبره وصليت في مسجده الشريف عدة مرات منذ صغري..

كنت قد قرأت كثيرا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – لكني ربما كنت أعرف عن النبي أكثر مما أعرف عن الله – سبحانه وتعالى.

لم أكن أفهم معنى أن أحب الله..

وكنت أتعجب من نفسي؛ ربما لأن النبي كان بشرا.. وكان معنى الإله بالنسبة لي معنى صعب الفهم!!

وهكذا بدأ كل شيء سيئ يصيبني يبعدني عن الله.. وكان البعد يزيد وحدتي.. والوحدة والحزن يزيدان بعدي كذلك..

لقد بدأت من عدم الإيمان بالقضاء والقدر.. وبخيرية ما يحدث لي.. وبحكمة ما يكتبه الله عليَّ.. إلى عدم الإيمان بحب الله نفسه.. وكأن بداخلي غضبا مكتوما دائما غير مبرر..

وإنني الآن وقد قطعت رحلتي الشاقة من الشك إلى الإيمان لأرى الأشياء كلها بطريقة مختلفة..

لكن هذه الرحلة لم تتم بين ليلة وضحاها..

فقد استغرق الأمر أياما طويلة..

لقد بدأت رحلتي عندما سمعت عن تحضير الجن.. يقولون إنك لو استطعت استحضار جن طيب فإنه سيساعدك ويكون خادمك، ولو كان الجن شريرا فسيؤذيك ولن تستطيع حتى صرفه..

وكنت في حاجة ماسة إلى المساعدة، ما دفعني إلى القبول بهذا، وبدأت رحلة تحضير الجن..

لن أطيل عليكم في هذا السياق.. فيكفيني أن تعلموا أني قطعت شوطا لا بأس به في هذا الأمر وقضيت فيه وقتا طويلا واشتريت كتبا كثيرة..

لكني في النهاية فشلت في استحضار الجن، ولم ألقَ من هذه التجربة إلا مزيدا من المتاعب..

وعدت ألتمس الإيمان من جديد..

بالطبع حاولت أن أستمع إلى الكثير من المشايخ، لكنني كنت دائما أصطدم بخطاب «افعل ولا تفعل».. وقليلا ما سمعت منهم عن العقيدة أو حب الله أو ما يسمونه «الرقائق»..

وحاولت قراءة بعض الكتب، لكني لم أكن أعرف من أين أبدأ ولم

أجد الكثير من الكتب تتحدث عن بغيتي..

وأخيرا كنت قد تعبت من المحاولة.. فحاولت تناسي الأمر كله..

ربما لو لم أكن أحس بكل هذه الوحدة لما أحسست بهذا الغضب من الأقدار!!

وجربت أن أحاول ملء وحدتي بالمزيد من الصداقات..

حادثت الناس على الإنترنت وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، وقابلت كثيرا من أصدقاء الإنترنت.. وكان من بينهم «مصطفى»..

كان شابا وسيما يدرس في كلية التجارة.. وأعجبني وأعجبته.. وصرنا صاحبين..

وحاولت أن أملأ حياتي بشلة الجامعة وشلة الإنترنت، وبصداقتي لـ«مصطفى»..

لكن كل هؤلاء لم يزيدوني إلا شقاءً..

فلم تمض فترة طويلة حتى علمت أن بعض أصدقائي كانوا يتعاطون المخدرات..

وحاولت أن أقلدهم وأن أجرب شيئا جديدا، لكنهم منعوني من ذلك..

وهم من قطعوا علاقتهم بي في النهاية وكانوا يقولون في إصرار:

- إحنا خلاص انتهينا.. أما أنت فأمامك الطريق والفرصة..

لا تضيعي نفسك معنا فأنت لا تشبهيننا..

وهكذا خسرت أصدقاء أحبوني فأحببتهم على الرغم من ضعفهم وأخطائهم..

وحتى «مصطفى» تركني كذلك بعد وقت قصير لأنه لم يحتمل أني «صفحة بيضاء» - على حد وصفه - وأني أحتاج لتعلم كل شيء من البداية!!

وانتهى العام الدراسي الثاني برسوبي كما رسبت في العام الأول..

ولم أهتم كثيرا بهذا الأمر قدر اهتمامي بأمر صديقتي «نهى» التي نجحت بامتياز.. وفرحت بنجاحها.. لكني وجدتها منذ بداية الإجازة الصيفية لا تتصل بي، وإذا اتصلت بها حادثتني بجفاء لم تحاول إخفاءه.. وسألتها مباشرة إن كان هناك من سوء قد صدر مني عن غير قصد فأغضبها.. وفوجئت بها تجيبني بأنها لن تستطيع أن تستمر في صداقتنا لأن أماكن الدراسة وأوقاتها ستختلف بيننا، ثم إنها بصراحة تخشى من أنها لن تستطيع مساعدتي في دراستي؛ لأنها ستكون مشغولة بدراستها!!

وصُدمت بشدة لسماع ذلك.. فلم أطلب منها من قبل مساعدتي.. وقد تزامن هذا الأمر مع وجود خالتها القريبة من الجامعة التي صارت

تذهب إليها وتسكن معها..

فقد كان كل ما بيننا إذًا من صداقة مجرد علاقة منفعة!! وكنت أنا بالنسبة لها مجرد منزل تسكن فيه!!

وفهمت لماذا لم توجه إليَّ أي نصيحة من قبل.. كانت تراني أخرج وألهو وتجلس هي لتذاكر في هدوء دون أن يشغلها أمري.. لم يكن الأمر يعنيها على كل حال..

زلزلني بشدة موقفها مني..

وكان أكثر ما آلمني هو أن أنخدع بهذا الشكل، وأن أكون بهذه البلاهة..

وفقدت الثقة في كل الناس.. وفي حكمي عليهم، وعلى نفسي، وعلى الأشياء من حولي..

وكانت آلامي قد صارت أكبر مما أحتمل..

وهنا قررت أن أذهب إلى طبيب نفسي..

وكما حدث من قبل؛ فمن قلب الضيق أتاني الفرج..

ومع كل باب يغلق هناك أبواب تنفتح..

كانت معرفتي بهذا الطبيب سببا في خير عظيم؛ فقد كان كمبعوث

السماء الذي أرسله الله - سبحانه وتعالى - خصيصا من أجلي..

كان طبيبي رجلا شديد الإيمان، ودارت بيننا أحاديث طويلة عن الحياة.. وعن الإيمان.. وعن الله.. وأحسست معه أني أبدأ حياة جديدة، وكأني أتعلم المشي من الخطوة الأولى..

حكى لي عن هذه القصة المعروفة؛ إذ ذهب أحد الطلبة إلى شيخه يشكو إليه قائلا: «إنني أتعلم العلم وأعرف أصول الفقه، لكني لست أعرف الله حقا». فأمره شيخه أن يذهب فيقرأ القرآن..

وكذا نصحني الطبيب.. وبدأت أقرأ القرآن وأعيد قراءته..

وأحسست أني أخيرا قد وجدت ضالتي..

فحقا قد وجدت أن في القلب وحشة لا يزيلها إلا الأُنس بالله.. وفي القلب فرقة لا يلمها إلا اللجوء إليه سبحانه.. وفهمت معنى أن الله هو أقرب مجيب وأنه هو الإله الحق الذي تؤلهه القلوب بكمال الحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوف والرجاء.. ولا يكون ذلك إلا لله وحده..

ورأيت قلبي وقد زال عنه الجليد.. وقد أزهر قلبي وكأني الشبلي حين قال للحلاج:

«أرخي أجفاني في قلبي..

وأحدق فيه، فأسعد..

وأرى في قلبي أشجارا، وثمارا..

وملائكة، ومصلين، وأقمارا..

وشموسا خضراء وصفراء، وأنهارا..

وجواهر من ذهب، وكنوزا من ياقوت..

ودفائن، وتصاوير..

كل في أعلى سمته

أو في أبهى هيئاته» *

وامتلأ قلبي بالرضا.. وسامحت نفسي وسامحت كل من عرفت.. حتى من آذاني فقد علمني..

وعلمت أن كل هذا كان من فضل الله – تعالى – عليّ..

وأخبركم أخيرا أني مع بداية حياتي الجديدة تعرفت إلى «علي»..

وكان «علي» زميلي في الجامعة.. وأحسست معه لأول مرة أن هناك من يهتم لأمري بصدق.. وتعلمت منه الكثير.. واكتشفت معه أن «التقاليد المصرية» التي أخبرتني عنها «نهى» أو غيرها لم تكن هي كل مصر.. وأن

* الكلمات للشاعر «صلاح عبد الصبور» من «مأساة الحلاج»

الناس يختلفون في مصر كما في أي مكان آخر.. ومن الناس الصالح والفاسد..
لكن الحق ثابت لا يتغير.. وما نفعله صوابا هو ما نظنه نحن كذلك..

واستعدت ثقتي.. واستعدت موازين الأمور..

وشجعني «علي» كثيرا على الدراسة، وبالفعل بذلت أقصى ما استطعت من الجهد..

وأخيرا تخرجت بنجاح.. ونجح «علي» كذلك نجاحا كبيرا..

وجاء أبي وأمي إلى مصر، وقابلا «علي» الذي تقدم إليَّ وأعلنَّا خطبتنا..

وأخيرا انتهت قصتي..

وتحولت رحلتي، التي بدأت بالبحث عن طريقة للحياة في مصر، إلى البحث عن طريقة للحياة النسبية.. الحياة التي تناسبني أنا «نور»..

فقد أدركت أن الوجوه تتغير والأشكال تتبدل..

وتختلف اللغات والملابس وعادات الناس وأفكارهم وأحلامهم..

وقد نجد الحق والخير والجمال..

وقد لا نجدها..

ويموت الحب وينتعش..

ويأتي زمان قيم وزمان عُهر..

وبلاد تقدس الفضيلة وبلاد تحاربها..

ويبقى الإنسان..

بمشاعر لا تتغير وفطرة لا تتغير ونفس لا تتغير..

كل يرى من منظوره وحده ويبحث عمّا يناسبه..

ولا يهم أين وُلدت ولا في أي زمان..

المهم أن ذلك السؤال الأبدي يبقى:

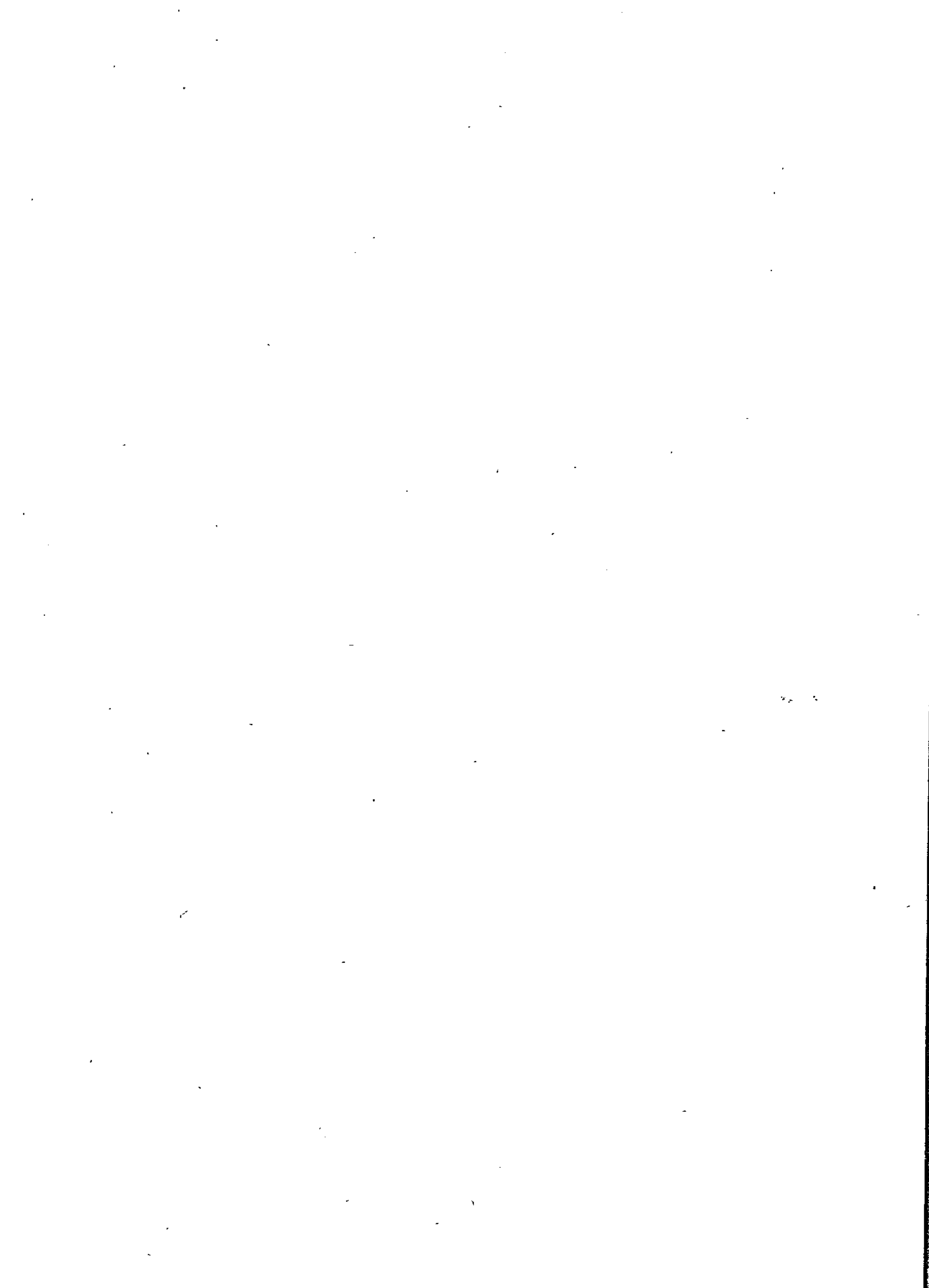
ماذا فعلت..

حين وجدت خيرا..

وحين وجدت شرا...

وحين عشت.. كإنسان؟!

* * *



رسالة حب

في أثناء دراستنا الثانوية كنا أربع بنات لا نفترق..

كنت أنا و«فرح» و«كريستينا» و«ملك»..

كان ما بيننا أكثر من صداقة وكأننا كنا أخوات..

وكان يجمعنا اجتهادنا واهتمامنا بمستقبلنا ودراستنا.. فكنا فتيات متفوقات..

وكانت مدرستنا مشتركة.. كان فيها الطيب والفاسد من الفتيان.. لكننا كنا نعتبرهم جميعا إخوتنا.. وكان أقصى ما يمكن أن يحدث أن يأخذنا الإعجاب فنتخذ أحدهم صديقا مقربا.. وكانت حدودنا دائما عند الإعجاب، وكأن هناك اتفاقا غير معلن بيننا على أن الحب ممنوع في هذه السن..

كانت فرح تقول إن الرجال جميعا لا يعرفون الحب.. وإنه من الأفضل للإنسان ألا يستسلم للحب مطلقا..

لكنني كنت أومن أن الحب ممنوع في هذه السن فقط وليس في مطلقه.. وأن الحياة أمامنا ممتدة والطريق طويل.. وغدا سنقابل الحب

الحقيقي حين نُتم دراستنا ونبدأ الحياة الحقيقية..

المهم أننا كنا جميعا لا نتحدث عن الحب.. ما عدا «ملك».. التي كانت تحب «عمر»..

وكانت توجع رءوسنا بحديثها الذي لا ينتهي عنه وعن الحب الأول..

وسميناها «العاطفية».. وكنا نستمع إليها أحيانا ونسخر منها كثيرا..

لكني في أعماقي كنت أحس بأنها على حق.. فلا معنى للحياة بغير الحب.. فكنت أحترم مشاعرها كثيرا، وأشعر أن روحي كذلك كانت ترتقي وتعلو في آفاق بعيدة حين كنت أستمع إلى كلمات «ملك» التي تفيض إخلاصا وصدقا..

كان حبها صافيا إلى أبعد حد..

لكن «عمر» كان لا يعرف شيئا عن هذا الحب..

وجاءتنا «ملك» في يوم من الأيام وقد عقدت لنا اجتماعا طارئا بعد المدرسة قالت إننا سنناقش فيه أمرا شديد الأهمية..

وأخبرتنا أنها قد قررت أن تصارح «عمر» بحبها!!

وفوجئنا جميعا بهذا القرار.. ورفضناه بشدة.. فهو أمر غير محسوب العواقب..

واقترحت عليها «فرح»:

«تعرّفي إليه أولا على الإنترنت باسم مستعار.. وإذا ما نجحت العلاقة بينكما صارحيه بالحقيقة.. وإذا لم تنجح فلن تكون هناك خسائر».

ورفضت «ملك» أن تكذب..

فقالت «كريستينا»:

«بلاش تكذبي.. ابعثي له رسائل بشخصيتك الحقيقية على الإنترنت فيها تلميحات بمشاعرك.. وإذا وجدت رد فعل جيدا صارحيه بحبك بعدها».

لكن «ملك» رفضت هذا الاقتراح أيضا.. فقد كانت صديقة «عمر» منذ أيام الحضانة.. فلا حاجة لمزيد من التعارف عبر الإنترنت.. وكانت متأكدة أنها تعرفه بما يكفي لتقوم بهذه الخطوة الجريئة..

واكتشفنا في ذهول أنها كانت تريد أن تبعث إليه برسالة مكتوبة كما كانوا يفعلون في الأفلام القديمة؛ لأن رسائل النت لن تستطيع أن

تحمل عطرها!!

واكتشفنا أنها قد أعدت هذه الرسالة بالفعل، فلا مجال للنقاش.. كانت فقط تطلعنا على قرارها غير مترددة فيه.. فالحب يستحق المجازفة كما قالت..

وحذرناها أن كل هذا جنون.. وأن الموقف يمكن أن يسوء أو تقع الرسالة في يد أحد المدرسين.. «وشكلك هيبقى وحش أوي يا ملك»..

لكنها كانت قد حزمت أمرها.. ووجدنا الرسالة بين أيدينا..

كانت قد كتبتها على ورق ملون جميل، ووضعتها في ظرف صنعته بنفسها، وقد امتلأت الرسالة برسومات صغيرة رقيقة بين الكلمات وفاحت منها رائحة العطر الذكية في قوة..

كانت الرسالة شديدة الرقة وكأنها تخرج من الحكايات القديمة..

وفوجئت كذلك بأنها لم تكتب كلاما مرسلا.. بل قد أعدت رسالة شعرية رفضت أن تكون من الأشعار التي نحفظها أو نعرفها.. وقد جاءت بكتاب «إشراقات التوحد» وأخذت منه أبياتا من هنا وهناك وركّبتها لتصبح قصيدة جديدة لم يقرأها أحد من قبل!!

وذهلنا حين رأينا الرسالة، ولم نستطع منعها من الفكرة التي

رأيناها خطيرة..

كنا نظن أنها «عاطفية» لكن اتضح لنا أنها «معتوهة»..

وأخبرناها أن «عمر» جننها..

وفي اليوم التالي أعطت رسالتها لـ«عمر» في الصباح وهي تبتسم ابتسامتها الرقيقة..

كانت الرسالة تقول:

««لذلك القريب البعيد.. البعيد القريب..

أغني...

أعلن الآن على الأشهاد ميثاق جنوني..

وأغني..

أهديك أعوام عمري عاما فعاما..

أهديك سلاما..

سلام عليك.. ومليون مليون شوق إليك..

يا الذي.. من أنت؟ من؟

سرا تظل.. ودهشة كبرى..

وخلخلة لكل الراسيات..

هو أنت.. رجل..

لا تلخصه الأغاني.. ولا تشرحه الغرابة..

تجيء المدارات سعيا إليه..

ويغادر الكون كل الجهات ليسكب بين يديه..

هو أنت.. رجل..

عرائس أحلامه تتزين من عقيق الآباء..

وتستأنف الشمس دورتها فيه كل مساء..

إنه الشعر يأتي.. فتأتي الأرض والسماء..

وتأتي التواريخ.. وتأتي الجموع..

لأنه نجم يهوى السطوع.. قدر يأبى الرجوع..

ولأن قلبه استطاع احتواء الوجود..

وما زال تفاحة تحتويها الضلوع..

متعب أنت؟! أعلم ذا جيدا..

متعب.. متعب..

والخلاص بهذا الزمان العليل..

لا يأتي بغير الرحيل..

فارحل إليَّ.. حبني وارحل إليَّ..

لأني بانتظارك..

فأنا طفلة تعبث بين أشعاري وأسفاري ونارك..

والبدر عنوان انبهاري وانشطارك..
فكيف لا تأتي؟!
كيف يدري بجنوني غير موجي وبحارك؟
كيف يدري بانهماري غير ليلي ونهارك؟
كيف لا تأتي؟!
وما الذي يقدر أن ينسيني هواك؟
وأنا بقايا منثورة في ثناياك..
ووجهك لم أزل أدعوه ذاكرتي..
ومرآتي..
ما غير وجهك يظل داري؟
فلا تقص شموسك عن مداري..
عرفتك بعدما أيقنت بالموت..
وبعد تجهم الأيام.. وبعد مرارة الصمت..
عرفتك فالحياة عرفت يا أنت..
عرفتك..
وأنا يفجر ملء رأسي ألف شلال من السهد..
ويجلدني زحام تجمهر الأشواك في دربي..
فاهتف: أحبك..

أحبك أعظم الحب..

أحبك نجمة تمحو دجى الأشياء من قلبي..

فأنت حصاني المسحور.. والخاتم..

وفي عينيك أبصر ثورة العالم..

وأكتب فوق أوراق الحياة.. قصيدة الغبطة..

فأنت العمر.. والأشعار والأشجار والأزهار والحنطة..

وأنت بقيظ رمضاء الحياة خميلتي.. والظل والواحة..

وأنت الكون مختصرا بحجم فراشة.. في القلب سواحة..

وأنت النور يسري ملء جوانحي.. عصفورة خضراء صداحة..

فتشرق ملء أوردتي.. أقمار هي الإيمان والراحة..

أنت يا سيدي النيل..

فشقني يا نيل.. شقني وانسرب مبحرا في عروقي..

قد وهبتك حتى دمائي..

واقترح ما تشاء.. ترني مثلما ترتئيه..

فكل شيء تراه.. هو الحق عندي لا ريب فيه..

اقترح.. ترني مركبا أو شراعا..

أو تجدني بين راحتيك أتقاطر ندى..

لبيك.. لبيك يا نيل يا نهرنا الخالدا..

فأنا التي لولاك..

لم أك – مرة – أرجو لأيامي غدا*

كانت هذه هي رسالة الحب التي بعثت بها «ملك»..

وكان هذا أطول يوم دراسي مر علينا..

وأخيرا انتهى اليوم.. ووجدنا «عمر» يقف مع بعض زملائنا أمام المدرسة.. واعتقدنا أنه سينادي «ملك» عند خروجنا ليحادثها على انفراد..

وتسارعت ضربات قلوبنا الصغيرة في فرح.. فقد نجحت خطة «ملك» وعرف «عمر» بحبها العميق..

لكننا حين وصلنا عندهم رأينا «عمر» يمسك بالرسالة في يده وينظر إلى الأرض.. وكان يضحك ضحكة مكتومة في خبث وسخرية..

ووجدنا زملاءه يتحدثون إليه بصوت عالٍ وكأنهم يوجهون حديثهم إليه.. وقد كان الحديث موجها إلى «ملك» بمنتهى السخرية والوقاحة..

وقالوا كلاما كثيرا مثل: «يعني ما كانش باين عليك يا عمر».

---

* الأبيات مقتبسة بالفعل من كتاب «إشراقات التوحد» للشاعر «محمد الشهاوي»

«ياما تحت الساهي دواهي».

«بس حاسب يا عم النيل لتغرق».

«اوعى التمساح يعضك».

وأخذوا يسخرون منها و«عمر» يضحك مبتهجا بالمسرحية الهزلية التي صار فيها البطل المزعوم..

ونظرنا إليهم بكل احتقار.. كنت أحسب أنني في مدرسة راقية وإذا بهم حفنة من أولاد الشوارع..

ولم تستطع «ملك» أن تتمالك نفسها.. فانفجرت بالبكاء في وسط الشارع..

وخطفت الرسالة من يد «عمر» في عنف.. وجرت مسرعة إلى بيتها ببعض الرسالة الممزقة وبعض قلبها المكسور..

ولم تسمح لنا «ملك» بمشاركتها آلامها..

فلم ترد على اتصالاتنا.. وتغيبت عن الدراسة لمدة أسبوع كامل لم تسمح لنا خلاله برؤيتها..

وأخيرا عادت «ملك» بعدها إلينا.. وبكينا جميعا ونحن نرحب بها وكأنها قد عادت من الموت..

قالت لنا:

– آسفة لأني سببت لكم كل هذا الإحراج معي..

– لا عليكِ منّا.. كل ما أردناه أن نطمئن عليكِ.. وكلنا قلق بشدة.. المهم انتي عاملة إيه دلوقتي؟

– أنا كويسة أوي.. وخاصة إني أحسن من الأول كمان.. وقد شُفيت من العته.. ومن الحب.. «والضربة اللي ما تموّتش بتقوّي»..

وحاولنا أن نصدقها.. وأن نساعدها على نسيان كل ما حدث..

ولم نذكر هذا الموضوع بعدها..

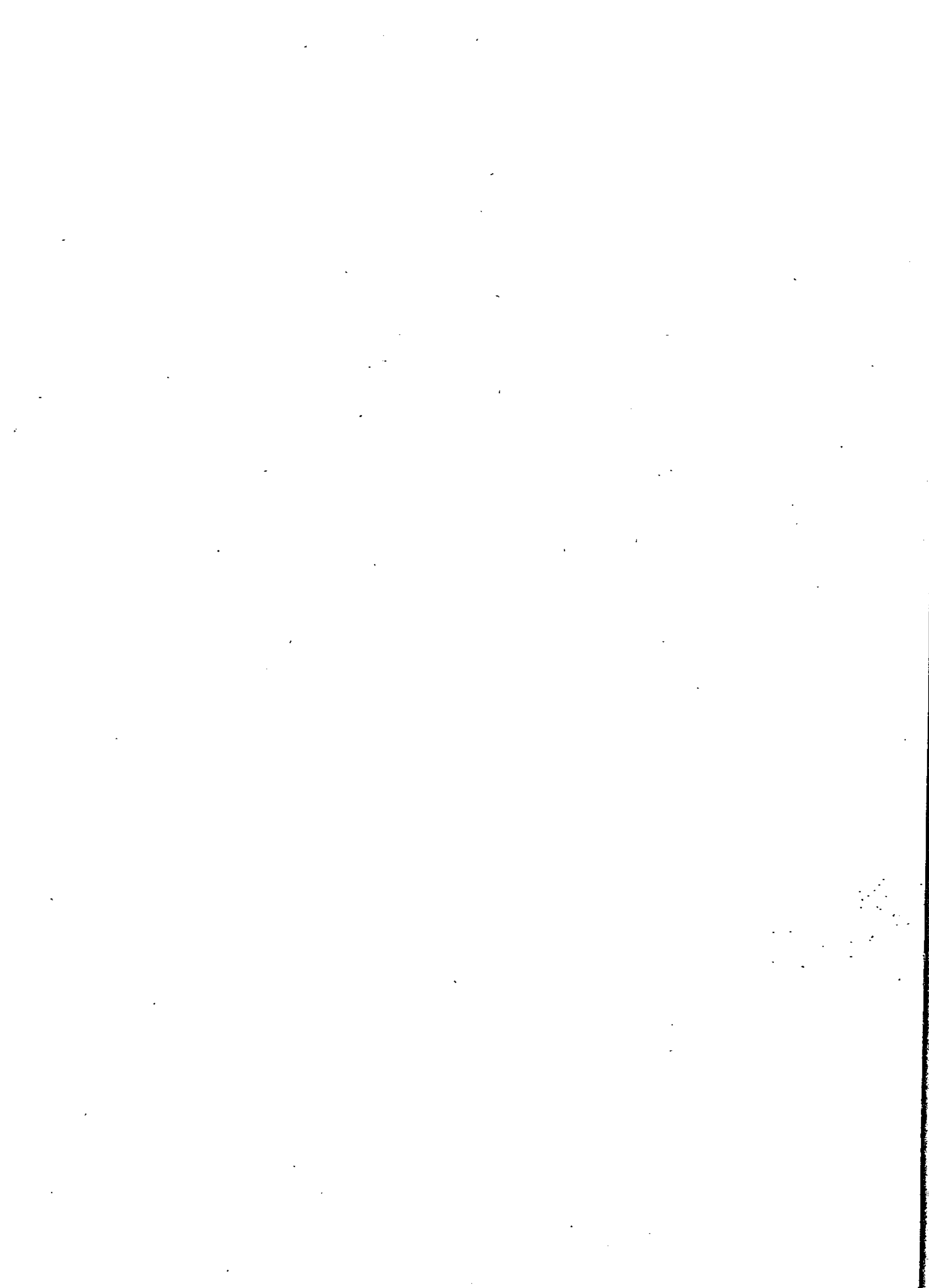
وعلى الرغم من أني لم أكن طرفا أساسيا في هذه التجربة القاسية فإنها قد أثرت فيَّ بشدة..

ولم أنسَ هذا اليوم أبدا..

وكأن كل الرجال قد صاروا «عمر»..

وكأن «فرح» كانت على حق من البداية حين قالت إن الرجال جميعا لا يعرفون الحب..

* * *



الفهرس





عزيزي القارئ..

يحكى هذا الكتاب عنا..

ربما ظننت للوهلة الأولى أنه حكايات مكررة لأشخاص مكررين..

ولكن الحقيقة أنه لا يوجد أشخاص مكررين.. فكل واحد منا متفرد بذاته وبمصيره..

ربما نحن فقط في الزحام نتشابه أو نتشابك.. ولكن يبقى كل منا إنسان مميز لا مثيل له..

وكل له حكايته الخاصة التي تستحق أن تروى.

منى أحمد

الغلاف: أسامه فوزي

